أبحاث

القدرة الإلهية والأسباب في القرآن الكريم

«سورة مريم أنموذجًا»

د. رحاب رفعت فوزي عبد المطلب [*]



المقدمة:

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد:

فإن الله ﷻ خلق هذا الكون بمن فيه وما فيه وجعل له سننًا وقوانين تحكمه وتُسَيِّر عمل الخلق فيه، وهي ما يعبر عنها بالأسباب؛ ليقوم الخلق بمهمة الاستخلاف في الأرض؛ ولذلك ربط الأسباب بمسبباتها والمقدمات بنتائجها.

وهذه الأسباب وتلك المسبَّبات تكوِّن قانونًا إلهيًّا عامًّا هو ما سماه القرآن الكريم: ﴿**سُنَّةَ ٱللَّهِ**﴾ التي لا تقبل التبديل ولا التغيير، قال- تعالى-: ﴿ **سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلاً** ﴾ [الفتح:٢٣].

(*) أستاذ مساعد الدراسات الإسلامية – قسم اللغة العربية وآدابها – كلية البنات – جامعة عين شمس.

وهذا القانون إنما هو خاضع لله- سبحانه وتعالى- الذي وضعه.

وتأثير السبب في المسبَّب ليس حتميًّا؛ إذ إن القدرة الإلهية هي المنوطة بتأثير السبب في المسبَّب وحدوثه أو عدم حدوثه.

والقانون الحتمي الوحيد هو: قوله- تعالى-: ﴿ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴾ [الطلاق:١] فهو الذي يتحدث عن طلاقة القدرة الإلهية من وراء هذه السنن والقوانين الكونية التي يدبر بها الله- سبحانه وتعالى- هذا الكون بقدره النافذ الطليق.

فالإرادة الطليقة هي التي تنشئ الآثار والنتائج كما تنشئ الأسباب والمقدمات سواء.

أسباب اختيار الموضوع:

لذا قام هذا البحث ليبين ويثبت طلاقة القدرة الإلهية من خلال سورة مريم وأن ارتباط الأسباب بالمسببات ليس حتميًّا، وأن القدرة الإلهية فوق الأسباب والمسببات، وأنها لا تتقيد بها، فقد يوجد السبب ولا يوجد المسبب، وأيضًا قد لا يوجد السبب ويوجد المسبب كما في معجزات الأنبياء، ويتضح ذلك من خلال قصة زكريا ويحيى وقصة مريم وعيسى- عليهم السلام-.

وكانت الفلسفة السائدة في عصر زكريا ومريم قائمة على ارتباط الأسباب بمسبباتها ارتباطًا حتميًّا لا يتخلف قط حتى بنوا نظرية الألوهية على العِلِّيَّة، فزعموا أن العالم نشأ عن الله نشوء العلة من المعلول من غير إرادة الفاعل المختار فجاءت السورة في كثير من آياتها بما هو خرق لهذه النظرية التي تدعي أن نظام الأسباب العادية وترتب مسبباتها عليها نظام مطرد مستقر لا يمكن تغييره.

جاءت هذه السورة لتبين وتثبت أن الذين يقيدون مشيئة الله بما يعرفونه هم من نواميسه لا يعرفون حقيقة الألوهية، وأن ما قدره الله من نواميس لا يقيد مشيئته -

سبحانه وتعالى-، وأن الناموس الوحيد الذي تندرج تحته كل النواميس هو طلاقة القدرة الإلهية وعلمه- سبحانه وتعالى- المطلق الذي يقتضي أن تتحقق الفوائد بالأسباب والمسببات أو بغيرها.

فالقدرة الإلهية فوق الأسباب والمسبَّبات، ولا تتقيد بها حتى يسير الخلق نحو الغاية الحقة المنشودة.

وهذا ما سيبينه هذا البحث من خلال فصوله ومباحثه.

الدراسات السابقة:

لم يتناول أحد من قبل دراسة هذا الموضوع: القدرة الإلهية والأسباب في سورة مريم- على حد علمي-.

وأرجو أن يكون هذا البحث إسهامًا وفاتحة لدراسة القدرة الإلهية والأسباب في القرآن الكريم كله.

منهج البحث:

اعتمدت في هذا البحث على المنهج الاستقرائي والتحليلي، وذلك باستقراء ما جاء في سورة مريم، وما يتعلق بذلك في القرآن الكريم، وكتب التفسير المختلفة وجمع الآيات القرآنية التي تتحدث عن قصة زكريا ويحيى وقصة مريم وعيسى- عليهم السلام- في سورة مريم وفي غيرها من سور القرآن الكريم؛ إذ إن القرآن يفسر بعضه بعضًا.

كما اعتمدت على المنهج التحليلي لتفسير هذه الآيات وتحليلها وفق إطار موضوعي كلي يبين علاقة القدرة الإلهية بالأسباب في هاتين القصتين.

خطة البحث:

جاء هذا البحث في مقدمة وتمهيد وفصلين وخاتمة.

أولاً: المقدمة: وقد اشتملت على أسباب اختيار الموضوع، والدراسات السابقة، ومنهج البحث وخطته.

ثانيًا: التمهيد: وقد اشتمل على:

أولًا: تعريف الأسباب.

ثانيًا: علاقة الأسباب بالمسببات.

ثالثًا: ارتباط الأسباب بمسبباتها ليس حتميًّا.

رابعًا: الأخذ بالأسباب والتوكل.

خامسًا: الحكمة من الأخذ بالأسباب.

ثالثًا: الفصل الأول: القدرة الإلهية والأسباب في قصة زكريا ويحيى- عليهما السلام-.

المبحث الأول: القدرة الإلهية والأسباب في دعاء زكريا عليه السلام.

المبحث الثاني: القدرة الإلهية والأسباب في عدم كلام زكريا عليه السلام.

المبحث الثالث: القدرة الإلهية والأسباب في خلق يحيى عليه السلام.

المبحث الرابع: القدرة الإلهية والأسباب في نبوة يحيى عليه السلام صبيًّا.

رابعًا: الفصل الثاني: القدرة الإلهية والأسباب في قصة مريم وعيسى- عليهما السلام-.

المبحث الأول: القدرة الإلهية والأسباب في حمل مريم وخلق عيسى.

المبحث الثاني: القدرة الإلهية والأسباب في شراب مريم بعد الولادة.

المبحث الثالث: القدرة الإلهية والأسباب في طعام مريم بعد الولادة.

المبحث الرابع: القدرة الإلهية والأسباب في كلام عيسى عليه السلام في المهد.

خامسًا: الخاتمة: وفيها أهم ما توصل إليه البحث من نتائج.

ولم أتطرق في هذا البحث إلى القدرة الإلهية والأسباب في خلق إسحاق عليه السلام، وإن كانت تجري في هذا السياق؛ وذلك لأن سورة مريم أشارت إليها فقط على حين جاءت في سور القرآن الأخرى: هود والذاريات والأنبياء والصافات بشكل جلي.

وتناوله بالدراسة في هذه السور يخرج البحث عن نطاقه المحدد له، وهو القدرة الإلهية والأسباب في سورة مريم – عليها السلام–، فالبحث محوره سورة مريم – عليها السلام– وما جاء فيها من تفصيلات.

هذا، وأسأل الله العلي القدير أن يتقبل هذا العمل منّي، إنه سميع مجيب.

* * *

التمهيد

تعريف الأسباب:

الأسباب: جمع سبب وهو كل شيء يتوصل به إلى غيره، وقيل: المودة، ومنه قوله- تعالى-: ﴿ **وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ** ﴾ [البقرة:١٦٦]. وقيل: الأسباب: الطرق أو النواحي أو المراقي، ومنه قوله- تعالى-: ﴿ **لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ * أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ** ﴾ [غافر:٣٦-٣٧]. وقد تطلق على الحوادث: قال زهير:

ومن هاب أسباب المنايا يَلْقَها ولو رام أسباب السماء بِسُلَّم

وأصل السبب: الحبل، وقيل: الذي يُصْعد به، وقيل: الرابط: الموصل، ومنه قوله- تعالى-: ﴿ **فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ** ﴾ [الحج:١٥]. أي: بحبل(١).

قال الزمخشري: «السبب: ما يتوصل به إلى المقصود من علم أو قدرة أو آلة»(٢).

علاقة الأسباب بالمسببات:

لا يوجد شيء في الوجود إلا وله سبب إلا الله ﷻ وحده هو السبب بلا مُسبِّب.

فالله ﷻ خلق هذا الكون بما فيه وبمن فيه، وجعل له سننًا وقوانين تحكمه وتنظمه، وتُسَيِّر عمل الإنسان فيه، وهي ما يعبر عنه بالأسباب، ليقوم بمهمة الاستخلاف في الأرض؛ ولذا ربط الأسباب بمسبباتها، والمقدمات بنتائجها.

ومن أمثلة السببية في الكون: أن الله ﷻ جعل نزول الماء بسبب السحاب، وخروج

---

(١) انظر: لسان العرب: محمد بن مكرم أبو الفضل جمال الدين ابن منظور الأنصاري (ت: ٧١١هـ)، الطبعة الثالثة (١٤١٤هـ)، دار صادر، بيروت، مادة: سبب (٤٥٨/١)، والبحر المحيط في التفسير: أبو حيان محمد بن يوسف بن حيان الأندلسي (ت: ٧٤٥هـ)، تحقيق: صدقي محمد جميل، طبعة (١٤٢٠هـ)، دار الفكر، بيروت، (٦٥/٢).

(٢) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: أبو القاسم محمود بن عمرو الزمخشري (ت: ٥٣٨هـ)، الطبعة الثالثة (١٤٠٧هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت (٤٧٣/٢).

النبات بسبب الماء، قال- تعالى-: ﴿ **وَهُوَ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ** ﴾ [الأعراف:٥٧].

فالآية الكريمة تبين لنا أن الرياح كانت سببًا لتجمع السحاب، والسحاب سببٌ لنزول ماء المطر، وهو بدوره سببٌ لخروج النبات من الأرض، فالأسباب يتبع بعضها بعضًا، والأمثلة على ذلك كثيرة في القرآن الكريم.

والعلاقة السببية لا توجد في الظواهر الكونية فحسب، بل العلاقات الإنسانية والاجتماعية ترتبط بعلاقات سببية، وكذلك الأحكام الشرعية، فمثلًا: القتل العمد سبب القصاص، والسرقة سبب لقطع اليد، والزنا سبب للرجم أو الجلد، والاستغفار سبب للتوبة، والإيمان سبب لدخول الجنة، والكفر سبب لدخول النار... وهكذا كل شيء في الوجود.

قال ابن تيمية: «فليس في الدنيا والآخرة شيء إلا بسبب والله خالق الأسباب والمسببات»(١).

وهذا القانون الإلهي المسمى في القرآن الكريم ﴿ **سُنَّةَ ٱللَّهِ** ﴾ لا يقبل التبديل ولا التحويل، قال- تعالى-: ﴿**سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا** ﴾ [الفتح:٢٣].

فسنة الله- تعالى- قائمة على ربط الأسباب بمسبباتها والمقدمات بنتائجها.

فسقوط أمة مثلاً أو هلاكها إنما يكون نتيجة لأسباب معينة أدت إلى ذلك، كذلك تقدم الأمم وازدهارها إنما هو أيضًا نتيجة لأسباب اتخذتها لذلك.

---

(١) الفتاوى الكبرى لابن تيمية: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن محمد بن تيمية الحنبلي (ت: ٧٢٨هـ)، الطبعة الأولى (١٤٠٨هـ-١٩٨٧م)، دار الكتب العلمية، (٧٠/٨).

ارتباط الأسباب بمسبباها ليس حتميًّا:

وجود السبب لا يعني بالضرورة حصول المسبَّب، فتأثير السبب في المسبب ليس حتميًّا؛ وذلك لأن القدرة الإلهية هي المنوطة بتأثير السبب في المسبب وحدوثه أو عدم حدوثه.

فالأسباب التي تعارف عليها الناس قد تتبعها آثارها وقد لا تتبعها والمقدمات التي يراها الناس حتمية قد تعقبها نتائجها وقد لا تعقبها؛ ذلك أنه ليست الأسباب والمقدمات هي التي تنشئ الآثار والنتائج، بل هي الإرادة الطليقة التي تنشئ الآثار والنتائج كما تنشئ الأسباب والمقدمات سواء قال- تعالى-: ﴿ **لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا** ﴾ [الطلاق:١] ﴿ **وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا** ﴾ [الإنسان: ٣٠].

فبإذن الله تفعل الأسباب فعلها وتنشئ آثارها وتحقق نتائجتها.. وهذه قاعدة كلية في التصور لا بد من وضوحها في ضمير المؤمن.

وأقرب ما يمثل هذه القاعدة في مثل هذا المقام: ما حدث لسيدنا إبراهيم عليه السلام عندما ألقى في النار، ولم تحرقه على الرغم من أن الاحتراق خاصية من خواص النار أودعها الله سبحانه وتعالى فيها، ولكن هذا الاحتراق لا يكون إلا بإذن الله- تعالى-[1]، ولذلك كانت النار بردًا وسلامًا على إبراهيم ولم تحرقه عندما أمرها بذلك: ﴿ **يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ** ﴾ [الأنبياء:٦٩].

فدل ذلك دلالة قاطعة على: أن تأثير الأسباب في مسبباها ليس تأثيرًا حتميًّا، وأن ارتباط المقدمات بنتائجها ليس ارتباطًا قطعيًّا.

---

(١) انظر: في ظلال القرآن: سيد قطب إبراهيم حسين الشاذلي (ت: ١٣٨٥هـ)، الطبعة السابعة عشر (١٤١٢هـ)، دار الشروق، بيروت، القاهرة، (٩٦/١).

فقد توجد الأسباب ولا يوجد المسبَّب، فمثلًا قد لا ينجب الزوجان على الرغم من توفر كل أسباب الإنجاب لديهما من صحة وشباب وغيرهما. أي: توفر كل شروط الإنجاب لديهما، وانتفاء موانعه عندهما، وكذلك قد يبذر الحب ويترل المطر، ومع ذلك لا يخرج النبات من الأرض، وما ذلك كله إلا لأن الأمر منوط بمشيئته ﷻ وإرادته.

وكذلك أمر الآخرة ليس بمجرد العمل ينال الإنسان السعادة بل هي سبب، ولهذا قال النبي ﷺ: «**لن يدخل أحدًا عمله الجنة. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضل ورحمة**»[1]، وقد قال - سبحانه وتعالى-: ﴿ **ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ** ﴾ [النحل:٣٢] فهذه باء السبب. أي: بسبب أعمالكم والذي نفاه النبي ﷺ في حديثه هو: أن العمل ليس عوضًا وثمنًا كافيًا في دخول الجنة، بل لا بد من عفو الله وفضله ورحمته فبعفوه يمحو السيئات، وبرحمته يأتي بالخيرات، وبفضله يضاعف الحسنات ويدخل الجنات[2].

ولما كان الأمر كله بمشيئة الله ﷻ وبإذنه فقد لا توجد الأسباب ويوجد المسبَّب كما في معجزات الأنبياء.

وهو ما يراد توضيحه في هذا البحث في سورة مريم - عليها السلام-.

فقد خلق يحيى من شيخ كبير هرم لا ينجب وزوجه عاقر، وخلق عيسى من غير أب، وغيرها من المعجزات التي تثبت طلاقة القدرة الإلهية وأنها فوق الأسباب والمسببات، ولا تتقيد بها.

(١) صحيح: أخرجه البخاري (١٢١/٧)، كتاب: المرضى، باب: تمني المريض الموت، بـرقم (٥٦٧٣)، ومسلم (٢١٧٠/٤)، كتاب: صفة القيامة والجنة والنار، باب: لن يدخل أحد الجنة بعمله، بل يرحمه الله، برقم (٢٨١٦/٧٥).

(٢) انظر: الفتاوى الكبرى (٧٠/٨).

الأخذ بالأسباب والتوكل:

هناك من الناس من يعتقد أن الأخذ بالأسباب ينافي التوكل، وأنه يجب على المؤمن الحق أن يعتمد على الله وحده دون الأخذ بالأسباب، وهؤلاء الناس لا يعلمون حقيقة التوكل، فليس التوكل على الله بمانع من اتخاذ الأسباب.

فالمؤمن يتخذ الأسباب من باب الإيمان بالله وطاعته فيما يأمر به من اتخاذها ولكنه لا يجعل الأسباب هي التي تنشئ النتائج فيتكل عليها؛ لأن الذي ينشئ النتائج – كما ينشئ الأسباب – هو قدر الله(١) سبحانه وتعالى.

فالأخذ بالأسباب فيه تقرير حقيقة التوكل على الله- تعالى-وإقامتها على أصولها الثابتة، وذلك يكون بالأخذ بالأسباب دون الاعتماد عليها وتعلق القلب بها بل الاعتماد على خالق الأسباب والمسببات.

قال الرازي مبينًا ذلك: «التوكل هو أن يراعي الإنسان الأسباب الظاهرة، ولكن لا يعول بقلبه عليها، بل يعول على عصمة الحق»(٢).

«فالتوكل الحقيقي لا يستدعي ترك الأسباب، فإنه لا توكل إلا بعد الأخذ بالأسباب؛ إذ إن حقيقة التوكل الذي طالب الله- تعالى- به هو: أنه يأخذ بالأسباب ويستعد، ثم يترك الأمور لله- تعالى-، فإنه قد يعرض للإنسان ما ليس في حسبانه، فعليه أن يترك تلك المنطقة الغيبية لعلام الغيوب»(٣)، فهو يعطي ويمنع لحكمة يعلمها.

«إن الأخذ بالأسباب في تحصيل المنافع ودفع المضار في الدنيا أمر مأمور به شرعًا لا ينافي التوكل على الله بحال؛ لأن المكلف يتعاطى السبب امتثالًا لأمر ربه مع علمه

---

(١) انظر: في ظلال القرآن (٣/١٤٧٦).

(٢) مفاتيح الغيب: أبو عبد الله محمد بن عمر الملقب بفخر الدين الرازي (ت: ٦٠٦هـ)، الطبعة الثالثة (١٤٢٠هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (٩/٤١٠).

(٣) زهرة التفاسير: محمد بن أحمد المعروف بأبي زهرة (ت: ١٣٩٤هـ)، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، (٣/١٣٩١).

ويقينه أنه لا يقع إلا ما يشاء وقوعه، فهو متوكل على الله، عالم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له من خير أو شر، ولو شاء الله تَخَلُّفَ تأثير الأسباب عن مسبباتها لتَخَلَّفَ»[1].

والدليل من القرآن والسنة على أن التوكل يستدعي الأخذ بالأسباب وأن الأخذ بها لا ينافي التوكل.

١- قوله- تعالى-: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ ﴾ [آل عمران:١٥٩]، فالأمر جاء في الآية بالتوكل على الله بعد أن أخذ النبي ﷺ بأسباب القتال والنصر، وإذا كان التوكل ترك الأسباب فَلِمَ كان الأمر بالعمل والقتال وغيره من التكليفات التي تكون سببًا لنتائج شرعية؟[2].

٢- قوله – تعالى- على لسان يعقوب عليه السلام: ﴿ وَقَالَ يَـٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَ‌ٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَ‌ٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ ﴾ [يوسف:٦٧] فقد أمرهم بتعاطي السبب وهو: أن يدخلوا من أبواب متفرقة لا من باب واحد خوفًا عليهم أن تصيبهم الناس بالعين؛ لأنهم أحد عشر رجلًا أبناء رجل واحد، وهم أهل جمال وكمال وبسطة في الجسم، فدخولهم من باب واحد مدعاة لإصابتهم بالعين والحسد فأمرهم بالتفرق والدخول من أبواب متفرقة تعاطيًا للسبب في السلامة من الإصابة بالعين.

ومع ذلك قال لهم: ﴿ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [يوسف:٦٧]، فقد جمع بين التسبب وبين التوكل على الله[3].

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي (ت:١٣٩٣هـ)، طبعة (١٤١٥هـ-١٩٩٥م)، دار الفكر، بيروت، لبنان، (٣٩٨/٣).

(٢) انظر: زهرة التفاسير (١٣٩١/٣، ١٣٩٢).

(٣) انظر أضواء البيان (٣٩٨/٣).

ومن أمثلة ذلك في السنة النبوية:

١- قول النبي ﷺ: «**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز**..» [(١)].

فالحديث يرشدنا إلى الأخذ بالأسباب في الحرص على ما ينفعنا مع الاستعانة به. أي: التوكل عليه في ذلك؛ لأن العجز هو ترك الأسباب.

قال ابن تيمية معلقًا على هذا الحديث: «احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز» أمرٌ بالتسبب المأمور به وهو الحرص على المنافع، وأمرٌ مع ذلك بالتوكل وهو الاستعانة بالله، فمن اكتفى بأحدهما فقد عصى أحد الأمرين»[(٢)].

٢- وقول رسول الله ﷺ لرجل عندما سأله عن ناقته: أعقلها وأتوكل؟ أو أطلقها وأتوكل؟ فأجابه قائلًا: «**اعقلها وتوكل**»[(٣)]. أي: اربطها بحبل، واعتمد على الله- سبحانه وتعالى-.

قال المباركفوري: «وتَوَكَّلْ. أي: اعتمد على الله؛ وذلك لأن عقلها لا ينافي التوكل»[(٤)].

---

(١) **صحيح: أخرجه مسلم** (٢٠٥٢/٤)، كتاب: القدر، باب: في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير إليه، برقم (٢٦٦٤/٣٤).

(٢) الفتاوى الكبرى لابن تيمية (١٠٩/١).

(٣) **حسن لغيره: أخرجه الترمذي في سننه** (٢٤٩/٤) برقم (٢٥١٧) من طريق المغيرة بن أبي قرة السدوسي، عن أنس بن مالك. قال الترمذي: «وهذا حديث غريب من حديث أنس لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وقد رُوِيَ عن عمرو بن أمية الضَّمْري عن النبي ﷺ نحو هذا».

وإسناده ضعيف لأجل المغيرة بن أبي قرة فقد وثقه ابن حبان.

وقال ابن حجر: مستور. انظر تهذيب التهذيب (٢٦٨/١٠) برقم (٤٨٠)، والتقريب (٦٨٤٩).

والحديث له شاهد من حديث عمرو بن أمية كما ذكر الترمذي يرفعه إلى درجة الحسن لغيره.

(٤) انظر تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي: أبو العلا محمد عبد الرحمن المباركفوري (ت: ١٣٥٣هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، (١٨٦/٧).

الحكمة من التوكل على الله:

التوكل على الله ﷻ مع الأخذ بالأسباب فيه معنى الشعور بالنقص والعجز الإنساني، ولأن الله- تعالى- خالق الأسباب والمسببات، وهو القادر على تغييرها، أو جعل الأمور على غير ما توجبه أسبابها، فالتوكل على الله فيه ضراعة وإحساس بالكمال المطلق لله- تعالى- وقدرته الشاملة على كل ما خلق، وإن عدم التوكل عليه وتفويض الأمر إليه مع العمل غرور من الإنسان(١).

وبناء على ذلك فإن التوكل على الله ليس هو التواكل وترك العمل؛ إذ إن التوكل هو الأخذ بالأسباب ثم الاعتماد على الله وحده في الوصول إلى النتائج، فإن الأسباب لا تنتج وحدها، ولكن لا بد من فضل الله- تعالى- بالتوفيق، ولطف التقدير(٢).

ولذلك فإن المؤمن بتوكله على الله وتفويض الأمر إليه بعد الأخذ بالأسباب يتحرر من العبودية للأسباب وتعلق قلبه بها(٣).

الحكمة من الأخذ بالأسباب:

١- الأخذ بالأسباب فيه امتثال لأمر الله ﷻ وطاعته، فقد جعل الله- سبحانه وتعالى- لهذا الكون سننًا وقوانين تنظم عمل الإنسان فيه وتسيره؛ ليقوم بمهمة الاستخلاف في الأرض كما ذكرت، ولذلك ربط الله ﷻ الأسباب بمسبباتها، والمقدمات بالنتائج، ورتبها عليها، وأمرنا أن نأخذ بها.

قال ابن القيم: «فإن الله أمرنا بالقيام بالأسباب، فمن رفض ما أمره الله أن يقوم به فقد ضادَّ الله في أمره»(٤).

---

(١) انظر: زهرة التفاسير (١٤٧٩/٣).

(٢) المصدر السابق (٢٠٦٧/٤، ٢٠٦٨).

(٣) انظر: في ظلال القرآن (١٤٧٦/٢).

(٤) مدارج السالكين: محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية (ت: ٧٥١هـ)، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي، الطبعة الثالثة (١٤١٦هـ-١٩٩٦م)، دار الكتاب العربي، بيروت، (٤٤٣/٣).

أسباب الدنيا والآخرة:

ولذلك فعلى الإنسان أن يعمل، وكُلٌّ مُيَسَّرٌ لما خُلِق له، وكل يكون جزاؤه في الدنيا والآخرة بناء على ذلك، قال- تعالى-: ﴿ **وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلۡأٓخِرَةِ نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَاۚ** ﴾ [آل عمران:١٤٥]. أي: «فمن يرد ثواب الدنيا. أي: جزاءها والنتائج المطلوبة منها، ويسلك السبيل القاصد الذي يوصل إلى الغاية، وينتهي إلى النهاية، يُمَكّنه الله من الأسباب، ويسهل له الحصول على النتائج، ومن كان يريد الآخرة ويقصد وجه الله- تعالى- في كل ما يعمل، ويقصد الدنيا لا لذاتها، بل على أنها مزرعة الآخرة، فإن الله- تعالى- يؤتيه من ثواب الآخرة ما ادخره لعباده المتقين، وهذا كقوله- تعالى-: ﴿ **مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ** ﴾ [آل عمران:١٥٢] وكقوله- تعالى-: ﴿ **مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ** ﴾ [الشورى:٢٠]»[١].

وبناءً على ذلك فإن الدنيا لها وسائل والنجاح فيها له أسباب توصل إلى النتائج، وكذلك الآخرة أيضًا لها أسباب وذرائع.

وما التقدم والازدهار الذي نراه في كثير من دول العالم الغربي إلا لأخذهم بالأسباب والوسائل الدنيوية الموصلة إلى هذا التقدم والازدهار، ومن أهم هذه الوسائل: العلم.

وما سادت الحضارة الإسلامية قبلها العالم إلا لأخذها أيضًا بتلك الوسائل والأسباب، وما تخلفت أمتنا الإسلامية إلا بتركها ذلك.

(١) زهرة التفاسير (١٤٣٥/٣).

٢- الأخذ بالأسباب فيه إثباتٌ لقدرة الله المطلقة، فهو- سبحانه- قادر على أن يجعل الأسباب تؤثر في مسبباتها، وقادر على تعطيل ونقض هذه الأسباب، فلا تؤثر في مسبباتها.

فالله ﷻ: «قادر على كل شيء في هذا الوجود يفنيه ويبقيه على ما يشاء، وقد وجد كل شيء بالقدرة والإرادة، لا بالعِلِّية والسببية؛ لأن الله لا يتقيد بالأسباب، فهو خالق الأسباب والمسببات، وخالق نواميس الكون، وكل ما فيه، وهو القاهر فوق عباده»[(١)].

٣- أراد الله ﷻ أن يعلم عباده عن طريق الأخذ بالأسباب أن هذه الأسباب مهما تكن قوية محكمة فإنها غير حتمية؛ لأن النتائج بيده- سبحانه-؛ لأن كل الكون تحت سلطانه كما قال ﷻ: ﴿ **إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُواْ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَـٰنٍ** ﴾ [الرحمن:٣٣].

قال الشيخ أبو زهرة مؤكدًا هذا المعنى: «إن كل شيء في الوجود تحت سلطان الله – تعالى-، وهذا معنى أن الله واسع. أي: محيط بكل شيء، قد وسع كل شيء برحمته وقدرته، وأنه يدبر الأمور على مقتضى العلم الواسع الشامل: فهو يربط الأسباب بالمسببات، وهو يعطي لحكمة يعلمها، ويمنع لحكمة يعلمها»[(٢)].

الفاعل هو الله – تعالى-:

إنه على الرغم من أن سنة الله ﷻ تجري بترتيب النتائج على الأسباب، ولكن الأسباب ليست هي التي تنشئ النتائج، فالفاعل المؤثر هو الله، والله يرتب النتائج على الأسباب بقدره ومشيئته، ومن ثم فإنه يطلب من الإنسان أن يؤدي واجبه، وأن يبذل

---

(١) زهرة التفاسير (٢٠٩٩/٤).

(٢) المصدر السابق (٨٩٣/٢).

جهده، وأن يفي بالتزاماته، وبقدر ما يوفي بذلك كله يرتب الله النتائج ويحققها.

وهكذا تظل النتائج والعواقب متعلقة بمشيئة الله وقدره. هو وحده الذي يأذن لها بالوجود وحين يشاء، وكيفما يشاء، وهكذا يتوازن تصور المسلم وعمله. فهو يعمل ويبذل ما في وسعه وهو يتعلق في نتيجة عمله وجهده بقدر الله ومشيئته ولا حتمية في تصوره بين النتائج والأسباب[١].

نظرية الاحتمالات:

ترك العلم الحديث - لذلك- نظرية «حتمية القوانين الطبيعية» ولجأ إلى نظرية «الاحتمالات» في عالم المادة، فكل ما كان حتميًّا صار احتماليًّا، وبقي الغيب سرًّا مختومًا، وبقي قدر الله هو الحقيقة الوحيدة المستيقنة، وبقي قول الله- سبحانه وتعالى-: ﴿ **لَا تَدۡرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرًا** ﴾ [الطلاق:١] هو القانون الحتمي الوحيد[٢].

يقول سير جيمس جينز الإنجليزي الأستاذ في الطبيعيات والرياضيات: «لقد كان العلم القديم يقرر تقرير الواثق: أن الطبيعة لا تستطيع أن تسلك إلا طريقًا واحدًا، وهو الطريق الذي رسم من قبل لتسير فيه من بداية الزمن إلى نهايته، وفي تسلسل مستمر بين علة ومعلول، وأن لا مناص من أن الحالة (أ) تتبعها الحالة (ب). أما العلم الحديث فكل ما يستطيع أن يقوله حتى الآن، هو: أن الحالة (أ) يحتمل أن تتبعها الحالة (ب) أو (ج) أو (د) أو غيرها من الحالات التي لا تخطئها الحصر.. ولكنه لا يستطيع أن يتنبأ عن يقين: أيَّ الحالات تتبع الأخرى؛ لأنه يتحدث دائمًا عما يحتمل. أما ما يجب أن يحدث، فأمره موكول إلى الأقدار مهما تكن حقيقة هذه الأقدار»[٣].

---

(١) انظر: في ظلال القرآن (١/٥٠٣).

(٢) في ظلال القرآن (٣/١٤٧٦).

(٣)المصدر السابق (٣/١٤٧٦، ١٤٧٧).

السعي في الحصول على الأسباب:

٤- ومن الحكمة أيضًا في الأخذ بالأسباب أن الله ﷻ أراد أن يعلم عباده ربط المسببات بأسبابها ليسعوا في الحصول على تلك الأسباب بقدر الطاقة، فإن الله- تعالى- كان قادرًا على تفجير الماء وفلق البحر لموسى عليه السلام بدون أن يأمره بضرب العصا، كذلك فالله ﷻ كان قادرًا على أن يترل الرطب لمريم- عليها السلام- دون أن يأمرها بذلك: ﴿ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ ﴾ [مريم:٢٥] ونحن نعلم أن هزها لم يك ليسقط الرطب وهي في حالتها تلك ضعيفة تعاني آلام الولادة والمخاض.

ولذلك فتطلب المسببات من الله- تعالى- دون الأخذ بأسبابها مع القدرة عليها، والسعي للحصول عليها، يعد سوء أدب مع الله - تعالى-.

نصرة الحق باتخاذ الأسباب:

٥- الأخذ بالأسباب فيه نصرة لأهل الحق، فلو أن أهل الحق اتخذوا كل أسباب القوة واعتزموا أمورهم ودبروا تدبيرهم، وقد جانبوا الهوى والشهوات لكانوا غالبين لا محالة، وما يغلب أهل الباطل إلا لعدم اتخاذ أهل الإيمان الأسباب(١).

ولذلك فُسر قوله - تعالى-: ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ وَأَرۡسَلۡنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولٗاۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ﴾ [النساء:٧٩] على أن ما أصابكم من أمور حسنة فبتوفيق الله- تعالى- لكم، وجعل النتائج مترتبة على أعمالكم التي اتخذتم فيها الأسباب ولم تتقاصروا عن الأخذ بأسباب النصر، وما يصيبكم مما يسوؤكم، ويترل بكم من غم فلترككم الأسباب الموصلة إلى الغاية، ومخالفتكم أوامر الله ورؤسائكم كما هو الشأن في غزوة أحد(٢).

* * *

---

(١) انظر: زهرة التفاسير (١٧٦٧/٤).

(٢) انظر: المصدر السابق (١٧٧٥/٤، ١٧٧٦).

الفصل الأول
القدرة الإلهية والأسباب
في قصة زكريا ويحيى - عليهما السلام-

تمهيد:

ابتدأت سورة مريم – عليها السلام– بذكر كرامات خارقة للعادة في الوجود الإنساني، جارية على غير نواميس البشر، وفي ذلك بيان أن القدرة الإلهية فوق الأسباب، وأنها لا تتقيد بها.

إذا أراد الله ﷻ أمرًا كان مفعولاً.

فالفلسفة الأيونية السائدة في ذلك العصر التي تولدت منها الفلسفة اليونانية «كانت قائمة على أن الأسباب وعلاقتها بالمسببات لا تتخلف قط حتى بنوا نظرية الألوهية على العِلِّيَّة، وقالوا: إن العالم نشأ عن الله – تعالى– نشوء العلة من المعلول من غير إرادة الفاعل المختار. فجاءت السورة في كثير من آياتها بما هو خرق لهذه النظرية.

إن من أسباب الخلق أن الشيخ الكبير لا ينجب، وأن المرأة العاقر لا تلد، فإذا أنجب الرجل الهرم من عجوز عاقر، فذلك خرق لنظرية الأسباب؛ إذ يوجد الولد من عاقر عجوز لا تنجب، ومن شيخ هرم لا ينسل»[1].

ولذلك نجد السورة ابتدأت ببيان القدرة الإلهية في قصة زكريا ويحيى عليهما السلام حين استجاب الله ﷻ لدعائه ووهبه يحيى وهو شيخ هَرِم وامرأته عاقر مخالفًا بذلك كله حتمية الأسباب والمسببات.

ثم تتوالى الأمور الخارقة لنظام الأسباب والمسببات، وبيان أنها لا تلزم الله ﷻ، وأن قدرة الله – تعالى– فوقها، وذلك في خلق عيسى عليه السلام من غير أب ومن عذراء طاهرة

---

(١) زهرة التفاسير (٩/٤٦٠٢).

نقية.

فقد كان عيسى بن مريم – عليهما السلام- معجزة في الحمل به وفي كلامه فهو في المهد.

وسيأتي بيان ذلك بالتفصيل من خلال فصول البحث ومباحثه.

سبب كثرة وقوع الخوارق في عصر زكريا ومريم – عليهما السلام-:

وقد بين الشيخ أبو زهرة سبب كثرة وقوع خوارق العادات في هذا العصر قائلًا: «هذا عصر كثرت فيه خوارق العادات؛ لأنها كانت تصحيحًا للعقول، وإزالة لفكرة خاطئة وقعت فيها الفلسفة التي كانت سائدة في هذا العصر، وهي نظام الأسباب العادية، وترتب مسبباتها عليها، وأنه هو النظام المطرد المستقر الذي لا يمكن تغييره، وهو النظام الموجود، حتى زعموا أن الله خُلِقَت عنه الأشياء منفعلة بالعلِّيَّة، وأنه ليس باختيار من الله وإرادة، فكل ما في الوجود جاء منفعلاً عن علة، وهو علَّة لغيره، حتى يتوالى كله بنظام العلِّيَّة، فالأب علة لوجود ابنه إذا كان قويًّا، والأم علة لوجود ولدها إذا كانت سليمة قوية ليست عاقرًا.

وكان لا بد لتصحيح هذه الفلسفة، ولبيان بطلانها أن تكون الأشياء بغير أسبابها التي استقرت أفهامهم على أنها أسباب طبيعية لها»[1].

الإرادة والمشيئة غالبة:

فعلى الرغم من أن الله ﷻ جعل للكون أسبابًا وأمرنا أن نأخذ بها، فمن أخذ بالأسباب يصل إلى المسبب، فإنه – سبحانه وتعالى- يعطينا دليلًا واضحًا في هذه السورة الكريمة على أن هذه الأسباب إنما هي تؤدي إلى المسبب بإرادته ومشيئته، وأنه قادر – عز وجل- على تعطيلها ونقضها متى شاء فيجعل المسبب دون سبب، فالله ﷻ

---

(١) زهرة التفاسير (٤٦٠٧/٩).

جعل الزواج بين المرأة والرجل سببًا لوجود الولد إذا توفرت لديهما أسبابه من صحة وشباب وغيرهما من العوامل التي تساعد على الإنجاب.

ولكن وجود هذه الأسباب لا يعني بالضرورة مجيء الولد، فقد تتعطل هذه الأسباب ولا يتم الإنجاب؛ لأن الأمر معلق بمشيئته ﷻ وقدرته. قال – تعالى–: ﴿ **لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ** ﴾ [الشورى:٤٩–٥٠].

فهذه الآية الكريمة ترشدنا إلى أن الله – سبحانه وتعالى–: ﴿ **يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ** ﴾ «يخلق ذكرًا أو أنثى فهو يجعل لهذا ذكرانًا، ولهذا إناثًا، ويجعل من يشاء عقيمًا، ولا قيد يقيد إرادته في طريقة الخلق والتكوين، فيخلق الناس من أب وأم، ويخلق آدم من غير أب ولا أم، ويخلق عيسى من أم، ومن غير أب»(١)، ويخلق يحيى من أب شيخ كبير وأم عاقر، ويخلق إسحاق كذلك من أب كبير وأم عاقر.

فالقدرة الإلهية إذن مطلقة غير مقيدة بالأسباب، وتظل القدرة الإلهية هذه في الخَلْق إلى أن تقوم الساعة.

المبحث الأول: القدرة الإلهية والأسباب في دعاء زكريا

على الرغم من أن خلق يحيى عليه السلام كان خرقًا لنظام الأسباب والمسببات — كما بينا — فإن زكريا قد أخذ بالأسباب بدعائه لربه بأن يهبه الولد، قال – تعالى–: ﴿ **كٓهيعٓصٓ * ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ * إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا** ﴾ **إلى قوله– تعالى–** ﴿ **فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا** ﴾ [مريم:١–٥].

وقال– تعالى–: ﴿ **وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ**

(١) انظر: زهرة التفاسير (٤/٢٠٩٨).

ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ [الأنبياء:٨٩].

وقال- تعالى-: ﴿ **هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ** ﴾ [آل عمران:٣٨].

الدعاء سبب من الأسباب:

ففي هذه الآيات الثلاث أخذ زكريا عليه السلام بالأسباب ودعا الله سبحانه وتعالى بأن يهبه الولد، وهو يعلم أنه لا يملك أسباب الإنجاب الطبيعية بسبب كبره وعقر زوجته، ولكنه أيضًا يعلم علم اليقين بأن القدرة الإلهية فوق الأسباب.

قال الشيخ أبو زهرة في تفسير قوله: ﴿ **هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ** ﴾ مؤكدًا هذا المعنى: «أي: أعطني أنت عطاء كريمًا لا سبب له إلا إرادتك، ولا باعث عليه إلا رحمتك، فلا يكون الأمر فيه جاريًا على مقتضى الأسباب ومسبباتها، إنما يكون على مقتضى الهبة المجردة والعطاء الخالص الذي لا سبب له إلا إرادتك الأزلية وإلا رحمتك.

﴿ **مِن لَّدُنكَ** ﴾ أي: من عندك. أي: السبب يكون من عندك لا من عندي؛ لأن الأسباب عندي قد زالت، ولم يعد إلا سبب منك، وإلا معجزة تكون فيها المانح المعطي من غير أي علة أو ترتيب»[1].

تعلم زكريا عليه السلام من كفالته لمريم – عليها السلام- أن الله سبحانه وتعالى كما يعطي بسبب يعطي أيضًا بدون سبب، فعند رؤية زكريا عند مريم من رزق الله الذي رزقها، وفضله الذي آتاها من غير تسبب أحد من الآدميين في ذلك قال لها قال- تعالى-: ﴿ **كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴾ [آل عمران:٣٧].

---

(١) زهرة التفاسير (١٢٠٣/٣).

فلما رأى ذلك من خرق العادة في حق مريم – عليها السلام– طمع فيه في حق نفسه فدعا أن يهبه الله الولد[1]. قال – تعالى–: ﴿ **هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ** ﴾ [آل عمران:٣٨].

وإلى هذا المعنى ذهب معظم العلماء والمفسرين:

قال الرازي: «والجمهور الأعظم من العلماء والمحققين والمفسرين قالوا: إن زكريا عليه السلام رأى عند مريم من فاكهة الصيف في الشتاء، ومن فاكهة الشتاء في الصيف، فلما رأى خوارق العادات عندها، طمع في أن يخرقها الله – تعالى– في حقه أيضًا، فيرزقه الولد»[2].

ولما كان للدعاء أوقات وأمكنة يستحب للمؤمن أن يتوخاهما، فقد تخير زكريا عليه السلام في دعائه لربه أن يهبه الولد هذا الزمان وذلك المكان.

فقوله – تعالى–: ﴿ **هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ** ﴾: «إن حملناه على المكان فهو جائز. أي: في ذلك المكان الذي كان قاعدًا عند مريم – عليها السلام–، وشاهد تلك الكرامات دعا ربه، وإن حملناه على الزمان فهو أيضًا جائز، يعني: في ذلك الوقت دعا ربه»[3].

فالحكمة ضالة المؤمن، وأهل النفوس الزكية يعتبرون بما يرون ويسمعون، فلذلك عمد إلى الدعاء بطلب الولد في هذه الحال، وقد كان في حسرة من عدم الولد، وأيضًا فقد كان في مكان شهد فيه فيضًا إلاهيًّا، ولم يزل أهل الخير يتوخَّون الأمكنة بما حدث فيها من خير، والأزمنة الصالحة كذلك، وما هي إلا كالذوات الصالحة في أنها

(١) انظر: جامع البيان (٣٥٦/٥)، وتفسير القرطبي (٥١٩/٢١، ٥٢٠).
(٢) تفسير الرازي (٢٠٩/٨).
(٣) مفاتيح الغيب (٢٠٩/٨).

مَحَالٌّ تجليات رضا الله[1].

«ومشاهدة خوارق العادات خولت لزكريا الدعاء بما هو من الخوارق، أو من المستبعدات؛ لأنه رأى نفسه غير بعيد عن عناية الله - تعالى-، لاسيما في زمن الفيض أو مكانه»[2].

ووهبه الله ﷻ الولد استجابة لدعائه، قال - تعالى-: ﴿ **فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ** ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

المبحث الثاني: القدرة الإلهية والأسباب في عدم كلام زكريا عليه السلام

ذكرنا فيما سبق كيف أن الله ﷻ خلق يحيى عليه السلام من أب شيخ كبير وأم عاقر. أي: بدون وجود أسباب للحمل به؛ وذلك لأن القدرة الإلهية فوق الأسباب ولا تقيد إرادته - سبحانه وتعالى-.

وتظهر قدرة الله - تعالى- كذلك في جعل الله ﷻ آية لزكريا عدم كلامه مع امتلاك أسبابه. أي: مع سلامة جوارحه، وعدم وجود علة ما تمنعه من ذلك.

ويتضح ذلك في سورة مريم: ﴿ **قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا** ﴾ [مريم: ١٠] وفي سورة [آل عمران: ٤١] ﴿ **قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ** ﴾.

فيتضح من هاتين الآيتين أن الله ﷻ أراد نَصْب علامة على وقوع الحمل بالغلام ألا

---

(١) انظر: التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن محمد بن عاشور التنوسي (ت: ١٣٩٣هـ)، طبعة (١٩٨٤م)، الدار التنوسية للنشر، تونس، (٢٣٨/٣).

(٢) المصدر السابق: الموضع نفسه.

يكلم الناس ثلاثة أيام بلياليهن[١] ومعنى: ﴿ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ﴾: أي: تعذر الكلام بعدم القدرة عليه مع وجود أسبابه؛ لأن ذلك هو المناسب لكونه آية من قبل الله – تعالى–، وليس المراد نهيه عن الكلام (فألا) «ليست للنهي عن الكلام، بل هي إخبار عن حالة ستحدث له دون إرادته فلا يكلم الناس مع سلامة جوارحه ودون علة تمنعه من الكلام كخرس أو غيره.

ولذا قال – سبحانه وتعالى–: ﴿ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾ [مريم:١٠] أي: سليمًا معافى ليس لمرض بل لمحض فعل الله– تعالى– مع سلامة الآلات. أي: لا قصور في جارحة من جوارحك كَبُكْمٍ أو خَرَس، وهكذا لا يكون عدم الكلام عيبًا، بل آية من آيات الله اقتضتها الحكمة الإلهية[٢].

فهنا تتجلى طلاقة القدرة الإلهية فقد منع كلام زكريا مع وجود أسبابه، وشاء– سبحانه– لزكريا الولد بغير أسباب وكأن الحق– سبحانه– يعطينا الدليل على أنه قد يُوجد الأسباب سليمة صالحة ولا يظهر المسبَّب، فاللسان هنا موجود، وآلات النطق سليمة، ولكنه لا يقدر على الكلام»[٣].

قال الشيخ الشعراوي: «فتأمل طلاقة القدرة، فقد شاء– سبحانه– لزكريا الولد بغير أسباب، وهنا منع مع وجود الأسباب، فكلا الآيتين سواء في قدرته– تعالى– ومشيئته»[٤].

المبحث الثالث: القدرة الإلهية والأسباب في خلق يحيى

تتجلى في قصة زكريا عليه السلام القدرة الإلهية وأنها فوق نظام الأسباب والمسببات؛

(١) انظر: مفاتيح الغيب (٥١٩/٢١)، والكشاف (٧/٣)، والتحرير والتنوير (١٧/١٦).
(٢) انظر: تفسير الشعراوي (٩٠٣٩/١٥)، والتحرير والتنوير (١٦، ٧٣، ٧٤).
(٣) انظر: تفسير الشعراوي (٩٠٣٩/١٥).
(٤) المصدر السابق (٩٠٤٠/١٥).

وذلك لأن من «أسباب الخلق أن الشيخ الكبير لا ينجب، والمرأة العاقر لا تلد، فإذا أنجب الرجل الهرم من عجوز عاقر، فذلك خرق لنظرية الأسباب؛ إذ يوجد الولد من عاقر عجوز لا تنجب، ومن شيخ هرم لا ينسل»(1).

ولذلك ابتدأ زكريا عليه السلام دعاء ربه بذكر عدم قدرته طبقًا للأسباب العادية الموجبة للولد.

فقال: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا ﴾ [مريم:٤] والآية الكريمة تخبر عن ضعفه وكبره وتبين آثاره الظاهرة والباطنة.

ضعف زكريا باطنًا وظاهرًا:

والضعف الذي يظهر في الباطن يكون أقوى مما يظهر في الظاهر، فلهذا السبب ابتدأ ببيان الضعف الذي في الباطن وهو قوله: ﴿ وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي ﴾؛ وذلك لأن العظام أصلب الأعضاء التي في البدن، وإذا كان العظم أصلب الأعضاء فمتى وصل الأمر إلى ضعفها كان ضعف ما عداها مع رخاوتها أولى، ولما كان العظم حاملًا لسائر الأعضاء كان تطرق الضعف إلى الحامل موجبًا لتطرقه إلى المحمول، فلهذا السبب خص العظم بالوهن من بين سائر الأعضاء.

وأما أثر الضعف في الظاهر فذلك بانتشار الشيب في الرأس فثبت أن هذا الدعاء يدل على استيلاء الضعف على الباطن والظاهر، وذلك مما يزيد الدعاء توكيدًا لما فيه من اللجوء إلى حول الله وقوته، والتبري من الأسباب الظاهرة(2).

وعقم امرأة زكريا:

وبعد أن ذكر ما به من ضعف في الظاهر والباطن والتجرد عن الأسباب العادية،

---

(١) زهرة التفاسير (٩/٤٦٠٢).

(٢) انظر: مفاتيح الغيب (٢١/٥٠٨، ٥٠٩)، وفي ظلال القرآن (٤/٢٣٠٢).

واستبعاد حصول الولد من جهته ذكر كذلك استبعاد حصوله من جهة امرأته، قال- تعالى- على لسان زكريا: ﴿ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا ﴾ [مريم:٥] أي: ثبت عقرها ودوامه يدل على ذلك التعبير بــ«كان» الدالة على الدوام والاستمرار[١].

فقوله: ﴿ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا ﴾ «أي: أنها عاقرٌ في الحال؛ وذلك لأن العاقر لا تحول ولودًا في العادة ففي الإخبار بلفظ الماضي إعلام بتقادم العهد في ذلك»[٢].

وغرض زكريا من هذا الكلام: بيان استبعاد حصول الولد من جهة الأسباب العادية، وذلك لكبره وعقم امرأته، ولكنه يعلم يقينًا أن القدرة الإلهية فوق الأسباب ولذلك التجأ إلى الله بالدعاء بأن يهبه الولد ﴿ فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ﴾ [مريم:٥].

«ولذا قال متجهًا إليه؛ لأنه فوق الأسباب الظاهرة ﴿ فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ﴾ و«الفاء» لبيان ترتيب ما بعدها على ما قبلها، فهو مترتب على رجائه في الله- تعالى، وتَرَكَ الرجاء من جهة الأسباب العادية، وكان التعبير بــ«هب» أي: أنه هبة مجردة من فضلك وإرادتك أنت الفاعل المختار»[٣].

فكأن زكريا عليه السلام قد أراد أن يقول: يا رب إن كنت ستعطيني الولد فهو هبة منك لا أملك أسبابها[٤].

وكان قوله: ﴿ مِن لَّدُنكَ ﴾ تأكيدًا بأنه من قبَل الله - تعالى- لا دخل للأسباب العادية فيه، بل إنه خرق لهذه الأسباب»[٥].

---

(١) انظر: زهرة التفاسير (٤٦١١/٩).
(٢) مفاتيح الغيب (٥٠٩/٢١).
(٣) زهرة التفاسير (٤٦١١/٩).
(٤) انظر: تفسير الشعراوي (٩٠٣٠/١٥).
(٥) زهرة التفاسير (٤٦١١/٩)، وانظر: تفسير الشعراوي (٩٠٣٠/١٥).

نداء الله– سبحانه وتعالى– لزكريا:

واستجاب الله ﷻ لنبيه زكريا فقال له: ﴿ **يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيًّا** ﴾ [مريم:٧].

واختلف المفسرون في مَنْ المُنادِي في هذه الآية هل هو الله – سبحانه وتعالى– أم الملك (جبريل).

«فالأكثرون على أنه هو الله – تعالى–؛ وذلك لأن ما قبل هذه الآية يدل على أن زكريا عليه السلام إنما كان يخاطب الله – تعالى– ويسأله وهو قوله: ﴿ **رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي** ﴾ [مريم:٤] وقوله: ﴿ **وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا** ﴾ [مريم:٤] وقوله: ﴿ **فَهَبۡ لِي** ﴾ [مريم:٥] وما بعدها يدل على أنه كان يخاطب الله – تعالى– وهو يقول: ﴿ **رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ** ﴾ [مريم:٨] وإذا كان ما قبل هذه الآية وما بعدها خطابًا مع الله – تعالى– وجب أن يكون النداء من الله – تعالى– وإلا لفسد النظم»(1).

ومنهم من قال: إن النداء من الملك واستدلوا على ذلك:

١- بقوله– تعالى– في سورة [آل عمران:٣٩] ﴿ **فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ** ﴾(2).

٢- وبأن زكريا عليه السلام لما قال: ﴿ **أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا** ﴾ [مريم:٨] رد عليه الملك قائلًا: ﴿ **كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ** ﴾ [مريم:٩]؛ لأن هذا لا يجوز أن يكون كلام الله فوجب أن يكون كلام

---

(١) مفاتيح الغيب (٥١١/٢١).

(٢) انظر: مفاتيح الغيب (٥١١/٢١، ٥١٢)، وأضواء البيان (٣٦٧/٣).

الملك[١].

والأظهر: ما ذهب إليه أكثر المفسرين من أن المنادي هو الله – تعالى- لما استدلوا به من الأدلة.

ولأنه الله ﷻ بعد ندائه له بــ﴿ يَٰزَكَرِيَّآ ﴾: بشره قائلًا: ﴿ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ ﴾ [مريم:٧] فأضاف – سبحانه وتعالى- التبشير إلى ذاته العلية ذاكرًا بضمير المتكلم العظيم فوق كل عظمة الذي لا يتقيد بأسباب الناس وعاداتهم، بل إنه الفعال لما يريد، وسماه الله – تعالى- تأكيدًا للتبشير، فسماه يحيى»[٢].

وأخبر أيضًا – سبحانه وتعالى- استجابته لدعاء زكريا في آية أخرى فقال: ﴿ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ ﴾ [الأنبياء:٩٠].

وقد قال – سبحانه وتعالى-: ﴿ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ ﴾ قبل أن يقول: ﴿ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ ﴾ التي ستنجب الولد، فقدم الهبة على إصلاح الزوجة.

ومعنى هذا: أن صلاح الزوجة ليس شرطًا في تحقق هذه البشرى وحدوث هذه الهبة.

وعلى هذا كان نداء الملائكة تبليغًا لكلام الله – تعالى- لزكريا عليه السلام.

وهنا يتجلى مظهر من مظاهر طلاقة القدرة الإلهية التي لا يعجزها شيء، والتي لا تقيدها الأسباب، فهو – سبحانه- قادر على إصلاح هذه الزوجة العاقر، فالصنعة الإلهية لا تقف عند حدٍّ، لذلك أصلح الله زوجه حتى لا نظن أن يحيى جاء بطريقة أخرى، والزوجة ما تزال على حالها»[٣].

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب (٢١/٥١٢).
(٢) انظر: زهرة التفاسير (٩/٤٦١٣).
(٣) تفسير الشعراوي (١٥/٩٠٣٧).

الحكمة من تسميته يحيى:

وتشير هذه التسمية بيحيى إلى المناسبة الواضحة بينه وبين ولادته من شيخ كبير فانٍ وأم عاقر لا تلد، فكأنما كان في اسمه دلالة على إحيائه - سبحانه وتعالى- لهذين الوالدين بخلقه ليحيى منهما، وفي هذا خرقٌ للأسباب والمسببات العادية التي يؤمن بها الفلاسفة آنذاك في عصرهم.

وقد وضح ذلك الشيخ أبو زهرة قائلًا: «ولهذا الاسم مناسبة واضحة بالنسبة لأبويه، فأبوه شيخ فان، وكأنما رد إليه شبابه في حياة ولده، فكان له إحياء، وأمه عاقر، كأنما خلق الله - تعالى- الحياة في رحم جف فلم يحمل جنينًا فكان منه الولد، وذلك بلا ريب خرق للأسباب والمسببات العادية التي فرضها فلاسفة اليونان الذين عاصروا ظهور المسيح عليه السلام ومريم أمه، وزكريا كافلها»[(١)].

الحكمة من تعجب زكريا:

ثم تأتي الآيات بعد ذلك فتبين حال زكريا عليه السلام؛ إذ هو واقف بين حالين: «حال الإيمان بالله خالق الأسباب والمسببات الذي لا تقيد إرادته عادة ولا سبب، أي سبب، وحال تسود الناس، وهي سيطرة الأسباب والمسببات العادية على تفكيرهم.

فبالأولى طلب ما طلب عالمًا أن الله - تعالى- فوق الأسباب والمسببات، وبالثانية ثار عجبه»[(٢)]؛ لأنه نظر إلى معطيات الأسباب، فكيف يُرْزق الولد؛ ولذا قال الله - تعالى- عنه: ﴿ **قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا** ﴾ [مريم:٨].

وقال في سورة [آل عمران:٤٠]: ﴿ **رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِي**

---

(١) زهرة التفاسير (٤٦١٣/٩).

(٢) المصدر السابق: الموضع نفسه.

عَاقِرٌۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾.

والاستفهام هنا ليس للاستنكار، فكيف يستنكر نبيٌ قدرة الله - تعالى- على الأشياء من غير وسائط وأسباب، وهو خالق الوسائط والأسباب[١] وهو فعال لما يريد.

وإنما المراد من الاستفهام: التعجب و﴿ أَنَّىٰ ﴾ بمعنى: كيف، قصد منه أن يتعرف كيفية إمكان الولد؛ لأنه لما سأل الولد فقد تهيأ لحصول ذلك، فلا يكون قوله: ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ ﴾ إلا تطلبًا لمعرفة كيفية ذلك على وجه يحقق له البشارة، وليس من الشك في صدق الوعد، وهو كقول إبراهيم: ﴿ لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ ﴾[٢] [البقرة:٢٦٠].

وقال ابن كثير موضحًا ذلك: «هذا تعجب من زكريا عليه السلام حين أجيب إلى ما سأل، وبشر بالولد، ففرح فرحًا شديدًا، وسأل عن كيفية ما يولد له، والوجه الذي يأتيه منه الولد، مع أن امرأته كانت عاقرًا لم تلد من أول عمرها مع كبرها، ومع أنه قد كبر وعتا: أي: عَسَا[٣] عظمه ونَحُل، و لم يبق منه لقاح ولا جماع»[٤].

وليس الحكمة من استفهام زكريا عليه السلام معرفة كيفية مجيء الولد فحسب، كما ذكر ابن كثير وغيره من العلماء، بل الحكمة من هذا السؤال أيضًا: ما قاله الشيخ أبو زهرة: «للتنبيه إلى موضع الغرابة، وليؤمن من لم يكن آمن بقدرة الله- تعالى-، وأنه لا يحتاج في خلقه إلى وسائط، وليسمع الناس بيان الله - تعالى- أنه هين عليه، وأنه ليس بغريب من الله- تعالى-، فقد خلق الإنسان و لم يك شيئًا، وأن الله - تعالى- غني عن الوسائط والأسباب، وشكرًا لنعمة الله في إجابة الدعاء، فقد أجاب - سبحانه- مع

---

(١) المصدر السابق: الموضع نفسه.

(٢) انظر: التحرير والتنوير (٣/٢٤١، ٢٤٢).

(٣) **عسا**: يبس. انظر: تفسير ابن كثير (٥/٢١٤).

(٤) تفسير ابن كثير (٥/٢١٤).

ظهور ما يبعد الإجابة، ولكن ليس على الله ببعيد»[1].

تقرير قضية عامة: إن الله يفعل ما يشاء:

ويأتي الرد على زكريا عليه السلام بما يؤكد أن الله – سبحانه- غني عن الأسباب والمسببات، وأنه فعال لما يريد، وأنه صاحب القدرة المطلقة؛ يستطيع أن يخلق الولد من والدين وإن كانا غير قادرين على الإنجاب؛ فإن ذلك هين عليه – سبحانه-، قال – تعالى-: ﴿ **قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا**﴾ [مريم:٩].

قال صاحب الظلال مبينًا ذلك: «والله هو الذي جعل العاقر لا تلد، وجعل الشيخ الفاني لا ينسل، وهو قادر على إصلاح العاقر، وإزالة سبب العقم، وتجديد قوة الإخصاب في الرجل، وهو أهون في اعتبار الناس من إنشاء الحياة ابتداءً، وإن كان كل شيء هينًا على القدرة إعادة أو إنشاءً»[2].

ولذلك جاء قوله – تعالى-: ﴿ **وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا** ﴾ [مريم:٩] فهذا تنبيه إلى القدرة الإلهية المطلقة التي لا تقيدها الأسباب، وهي مقدمة قياسية تزيل الغرابة، وتبين أنه لا غرابة على قدرة الله – تعالى-، فالله سبحانه وتعالى كأنه يقول له: قد خلقتك من قبل و لم تك شيئًا؛ لأني خلقتك من عدم لا بعد شيء، وإذا كان ذلك ممكنًا وواقعًا، وقد وقع فبالأَوْلى الخلق من شيء، وإن كان من أب شيخ كبير فان، وأم عاقر لا تلد فهما شيء، والخلق من شيء أقرب في الوجود من الخلق من عدم[3].

وجاء الرد على زكريا في آية أخرى: ﴿ **كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ** ﴾ [آل

(١) زهرة التفاسير (٩/٤٦١٣، ٤٦١٤).
(٢) في ظلال القرآن (٤/٢٣٠٣).
(٣) انظر: زهرة التفاسير (٩/٤٦١٥).

عمران:٤٠] «أي: أن الله – سبحانه- يفعل بمشيئته واختياره غير مقيد بالأسباب والمسببات والعادات وأحوال الناس؛ لأنه – سبحانه وتعالى- خالق الناس، وخالق الأسباب، وخالق مجاري العادات التي تجري بينهم. فالإجابة لا تتضمن فقط إزالة تعجب زكريا عليه السلام بل تتضمن مع ذلك تقرير قضية عامة، وهي أن الله يفعل ما يفعل باختياره وإرادته غير مقيد بأي قيد؛ إنه – سبحانه- فعال لما يريد»[١].

سبب مجيء هذا الخارق:

وسبب مجيء هذا الخارق أن «بني إسرائيل كانوا لا يؤمنون إلا بالجسد؛ إذ كانوا يفسرون كل شيء تفسيرًا ماديًّا، وقد سادت عندهم الفلسفة المادية، وكثر بينهم القول بأن الأشياء تنشأ عن العقل الأول نشأة المسبب عن السبب أو المعلول عن علته، فكان لا بد من صادع يقرع حسهم بحادث من هذا الصِّنْف الذي تتخلف فيه فلسفتهم، فيوجد المسبب من غير سبب، فيدل هذا على أن المنشئ فاعل مختار يفعل ما يريد، وهو اللطيف الخبير؛ ولذلك قال – سبحانه-: ﴿ **كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ** ﴾ [آل عمران:٤٠]»[٢] فلا تحكمه الأسباب.

المبحث الرابع: القدرة الإلهية والأسباب في نبوة يحى صبيًّا

وتتجلى أيضًا في نبوة يحى عليه السلام القدرة الإلهية التي لا تخضع للأسباب في قوله – تعالى-: ﴿ **يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا** ﴾ [مريم:١٢].

فقد أعطاه الله سبحانه وتعالى الحكم وهو صبي «وذلك أمر خارق للعادة، فإن الصبي يشدو الكمال حتى يبلغ مبلغ الرجال؛ فيخاطب كما يخاطب الرجال، ولكنه بلغ مبلغ الرجال، وهو صبي فأعطاه الله الحُكْم[٣].

---

(١) المصدر السابق (١٢٠٨/٣).
(٢) المصدر السابق (١٢٠٨/٣).
(٣) انظر: زهرة التفاسير (٤٦١٧/٩).

وقد اختلف المفسرون في المراد بالحُكْم في هذه الآية، فقيل: إنه الحكمة، وقيل: هو الفهم في التوراة والفقه في الدين.

وقيل: العقل فقد رُوي أنه قال: ما لِلَّعِب خُلِقْنا.

وقيل: النبوة؛ فإن الله - تعالى- أحكم عقله في صباه وأوحى إليه؛ وذلك لأن الله - تعالى- بعث يحيى وعيسى - عليهما السلام- وهما صبيان لا كما بعث موسى ومحمدًا - عليهما السلام-، وقد بلغا الأشد[1].

والأظهر أن المراد بالحكم: النبوة، ورجح ذلك الرازي واستدل عليه من وجهين:

«الأول: أن الله - تعالى- ذكر في هذه الآية صفات شرفه ومَنْقِبَتِه، ومعلوم أن النبوة أشرف صفات الإنسان فَذِكْرُها في معرض المدح أَوْلى من ذكر غيرها فوجب أن تكون نبوته مذكورة في هذه الآية، ولا لفظ يصلح للدلالة على النبوة إلا هذه اللفظة فوجب حملها عليها.

الثاني: أن الحكم هو ما يصلح لأن يُحكم به على غيره ولغيره على الإطلاق وذلك لا يكون إلا بالنبوة»[2].

وذهب إلى ذلك أيضًا ابن عاشور فقال في تفسير الحكم في قوله - تعالى-: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾ [مريم:١٢] «والمراد بها: النبوة، كما تقدم في قوله - تعالى-: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ ﴾ [يوسف:٢٢] فيكون هذا خصوصية ليحيى أن أعطى النبوة في حال الصبا»[3].

ترجيح أن يحيى أعطي النبوة:

والأظهر هو ما ذهب إليه الرازي وابن عاشور ومن وافقهما من أن المراد بالحكم

(١) انظر: مفاتيح الغيب (٢١/٥١٦)، وتفسير ابن كثير (٥/٢١٦).
(٢) مفاتيح الغيب (٢١/٥١٦، ٥١٧).
(٣) التحرير والتنوير (١٦/٧٦).

النبوة، ليناسب ما جاء في قصة زكريا ويحيى من خوارق العادات، ومن عطاء القدرة الإلهية التي لا تخضع للأسباب.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن تفسير الحكم بالنبوة يتناسب مع سياق الآية الكريمة فقد قال - تعالى- قبلها: ﴿ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ﴾ والمراد بالكتاب - كما ذهب إليه المفسرون- هو: التوراة[1] «فقد كانت التوراة شريعة النبيين الذين جاءوا من بعد موسى يقرأونها وينفذون أحكامها، ويعلمونها للناس، ويحكمون بما اشتملت عليه من نظم، فداود وسليمان — عليهما السلام- كانا ينفذان في ملكهما حكم التوراة، ويقيمان ما اشتملت عليه من حدود وقصاص من غير تفريط فيها»[2].

ولذلك أعطى الله - سبحانه وتعالى- يحيى التوراة بما يشعر أنه نبي وآتاه النبوة في حال الصبا. أي: في سن مبكرة، وهذا أمر خارق للعادة؛ لأن المسألة عطاء من الله لا يخضع للأسباب، فجاء يحيى عليه السلام مبكر النضج والذكاء يفوق أقرانه، ويخالف ما كان عليه غيره من الرسل، فقد أوتوا الكتب بعد الأربعين باستثناء عيسى عليه السلام وابن خالته يحيى.

* * *

(١) انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤٧٣/١٥)، ومفاتيح الغيب (٥١٦/٢١)، وتفسير ابن كثير (٢١٦/٥)، والكشاف (٧/٢)، وزهرة التفاسير (٤٦١٧/٩).

(٢) زهرة التفاسير (٤٦١٧/٩).

الفصل الثاني
القدرة الإلهية والأسباب
في قصة مريم وعيسى - عليهما السلام-

تمهيد:

لما ذكر الله – سبحانه وتعالى– قصة زكريا عليه السلام، وأنه خلق يحيى منه، وهو شيخ كبير وامرأته عاقر عطف بذكر قصة مريم وخلقه عيسى – عليهما السلام– منها من غير أب.

وقد قَرَنَ الله – سبحانه وتعالى– بين القصتين في سورة آل عمران، والأنبياء، وهنا في سورة مريم؛ لأن بين هاتين القصتين مناسبة ومشابهة، ومقاربة في المعنى.

فهما يدلان على القدرة الإلهية وأنها فوق الأسباب فلا تتقيد بها، وأن الله – سبحانه وتعالى– فعال لما يريد.

وقدم الله – سبحانه وتعالى– «قصة يحيى على قصة عيسى– عليهما السلام–؛ لأن خلق الولد من شيخين فانيين أقرب إلى مناهج العادات من تخليق الولد من غير أب البتة، وأحسن الطرق في التعليم والتفهيم الأخذ من الأقرب فالأقرب مُتَرَقِّيًا إلى الأصعب فالأصعب»[1].

وكما ذكرنا من قبل فعصر سيدنا عيسى عليه السلام كان عصرًا يؤمن بالأسباب المادية، وكان في عهده الفلاسفة الطبيعيون الذين لا يؤمنون بغير الأسباب التي يرونها، فكانت معجزات عيسى عليه السلام خرقًا حسيًّا صارخًا لهذه الأسباب– كما هو الحال في شأن يحيى، فولادته كانت بغير السبب المعروف؛ إذ كان من غير أب، وما كانوا يحسبون أن الأكمه الذي ولد أعمى يبصر، وما كانوا يعلمون أن البرص يُشْفَى منه، فشفى الله

(١) الجامع لأحكام القرآن (٢١/٥٢٠).

ذلك كله على يدي عيسى، وما كانوا يرون الحياة تُرَدُّ بعد الموت، فأحيى الله - تعالى- الموتى على يديه، وما كانوا يتصورون أن الطين يخلق منه طير، فجعل ذلك على يد عيسى.

جاء عيسى عليه السلام فكانت حياته وآياته كلها داعية لبطلان ذلك الاعتقاد بأنه لا شيء إلا الأسباب والمسببات[(١)].

المبحث الأول: القدرة الإلهية والأسباب في حمل مريم وخلق عيسى - عليهما السلام-

إرهاصات قبل الحمل:

هيأ الله - سبحانه وتعالى- مريم - عليها السلام- واصطفاها واختارها لتكون أمًّا لعيسى عليه السلام، وكانت إرهاصات ذلك قبل الحمل به، ويتضح ذلك في سورة آل عمران عندما كَفَلها زكريا، ورأى أن الأسباب تطوى لها، ولا تحول بين الله - تعالى- وما يريد، قال- تعالى-: ﴿ **فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقًا ۖ** ﴾ [آل عمران:٣٧].

وكان زكريا عليه السلام كلما دخل عليها المحراب- أي: مكان عبادها- وجد عندها رزقًا، وقد تواردت الروايات في بيان هذا الرزق فقيل: إن زكريا كان يجد فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء[(٢)].

وأيًّا ما كان هذا الرزق فهو رزق غريب عجيب يدل التنكير في قوله: ﴿ **وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقًا ۖ** ﴾ [آل عمران:٣٧] على تعظيم حال ذلك الرزق[(٣)].

---

(١) انظر زهرة التفاسير (٥/٢٣١١).
(٢) انظر: جامع البيان في تفسير آي القرآن (٥/٣٥٣)، وتفسير ابن كثير (٢/٣٦).
(٣) انظر: في ظلال القرآن (١/٣٩٣).

ولقد كانت إجابتها إجابة الربانيين الأبرار: ﴿ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ ﴾ [آل عمران:٣٧].

أكدت أنه رزق الله؛ ولذلك أتت بالضمير، ثم أكدت ذلك بما يزيل العجب، فقالت: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران:٣٧] أي: إن رزق الله كثير غير مقيد بسبب، ولا مقدر بقدر، لا يعده الحساب، ولا تجري عليه الأعداد التي تنتهي[(١)].

ولذلك «فخرق نظام الأسباب العادية كان في أم عيسى قبل أن تجيء إرهاصات ولادته، بل كانت هذه هي الإرهاصات الأولى؛ ولذا كان اصطفاء الله مريم البتول لتكون أمًّا لعيسى»[(٢)].

حمل مريم – عليها السلام–:

كان حمل مريم بعيسى– عليهما السلام– بغير أب معجزة كبرى خارقة لنظام الأسباب والمسببات.

فاليهود ما كانوا يؤمنون إلا بالمادة ولا يعترفون بالروح في كتاباتهم ولا في أنفسهم، ولا دراساتهم الدينية في العصر الذي بعث الله – تعالى– عيسى عليه السلام فيه، ولا العصر الذي قاربه وسبقه، فكان لا بد من أمر روحي يقرع حسهم وحالهم المادي، فكان خلق عيسى عليه السلام، وكان أمرًا خارقًا للعادة مبطلًا سلطان المادة، وكانت معجزاته كلها من الناحية الروحية من إبراء الأكمه والأبرص، والنفخ في الطير فيكون طيرًا، وإحياء الموتى بإذن الله – عز وجل– وغيرها من المعجزات التي كانت مختلفة عن سائر معجزات الأنبياء فهي قاطعة في إبطال الأسباب العادية والمسببات ولوازمها[(٣)].

---

(١) انظر: زهرة التفاسير (١٢٠١/٣).
(٢) زهرة التفاسير (٤٦٢٠/٩).
(٣) المصدر السابق (٣٠٣/١، ٣٠٤).

وكانت بداية حمل مريم بعيسى- عليهما السلام- كما أخبرت سورة مريم عندما ﴿ **ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانًا شَرۡقِيًّا** ﴾ [مريم:١٦] فقد تنحت مريم وتباعدت وانفردت عن أهلها واتخذت مكانًا شرقي بيت المقدس.

وكان وراء هذا الانفراد أن اتخذت حجابًا يحول بينها وبين أهلها ولذا قال- تعالى-: ﴿ **فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابًا** ﴾ [مريم:١٧].

أي: استترت منهم وتوارت، وذلك إحكام للعزلة التي أرادتها بإلهام من الله- تعالى-، وفي العزلة أرسل الله- تعالى- إليها الروح عليه السلام، قال- تعالى-: ﴿ **فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا** ﴾ [مريم:١٧].

واختلف المفسرون في هذا الروح ولكن الأكثرين على أنه جبريل عليه السلام؛ وذلك لأن جبريل عليه السلام يسمى روحًا، قال- تعالى-: ﴿ **نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ * عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ** ﴾ [الشعراء:١٩٣-١٩٤].

وقد ظهر لها جبريل في صورة إنسان تام كامل لتستأنس بكلامه ولا تنفر عنه، فلو ظهر لها في صورة الملائكة لنفرت منه، و لم تقدر على استماع كلامه(١).

وكانت مهمة جبريل عليه السلام هي إبلاغها رسالة الله سبحانه وتعالى الذي اصطفاها من نساء العالمين لأجلها، فقال- تعالى- على لسان جبريل: ﴿ **قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا** ﴾ [مريم:١٩].

وتتجلى القدرة الإلهية هنا في قوله - تعالى-: ﴿ **لِأَهَبَ لَكِ** ﴾ يفهم منه: أن ما سيحدث لمريم هبة من الله غير خاضعة للأسباب التكوينية، فالهبة في هذه الحالة هبة

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب (٥٢٠/٢١، ٥٢١)، والجامع لأحكام القرآن (٩٠/١١)، وتفسير ابن كثير (٢١٩/٥، ٢٢٠)، وزهرة التفاسير (٤٦٢١/٩).

حقيقية محضة، فقد قلنا في قصة زكريا ويحيى أن الله – تعالى– وهب يحيى لزكريا حال كونه كبير السن وامرأته عاقر، لكن على أية حال، فالجهازان موجودان: الذكورة والأنوثة، لكن في حالة مريم فهي أنثى بلا ذكر، فهنا الهبة المحضة، والمعجزة الحقيقية[1].

تعجب مريم – عليها السلام–:

وكان رد مريم – عليها السلام– على الملك: ﴿ **قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا** ﴾ [مريم:٢٠].

«فَأَنَّى» هنا بمعنى: «كيف» للاستغراب؛ وذلك لأن هذا أمر لم يألفه البشر، فالولد لا بد من سبب لوجوده وهو الأب، وهي عذراء لم تتزوج ولم تكن امرأة بغية بل كانت عفيفة نقية.

وقد أخبر عنها – سبحانه وتعالى– قائلاً في سورة [الأنبياء:٩١]: ﴿ **وَٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا** ﴾ فقد «أحصنت فرجها إحصانًا كليًّا عن الحلال والحرام جميعًا كما قالت: ﴿ **وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا** ﴾»[2].

وكان جواب الملك جبريل عليه السلام: ﴿ **قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا** ﴾ [مريم:٢١].

خلق عيسى آية ورحمة:

فالآية هي «الدلالة على قدرة الله – تعالى– المطلقة على خرق الأسباب والمسببات، فأي دلالة أقوى في الدلالة على أن الله – تعالى– فعال لما يريد، ولا يتقيد بالأسباب والمسببات، كما يتوهم الفلاسفة، ومن يلف لفهم ويسير في دروبهم»[3].

---

(١) انظر: تفسير الشعراوي (٩٠٥٦/١٥).
(٢) الكشاف (١٣٣/٢).
(٣) المصدر السابق (٤٦٢٤/٩).

والآية هنا أن الخالق - تبارك وتعالى- كما خلق آدم عليه السلام من غير أب أو أم، وخلق حواء من غير أم، خلق عيسى من أم دون أب، ثم يخلقكم جميعًا من أب وأم، وقد يوجد الأب والأم، ولا يريد الله لهما نسلًا فيجعل من يشاء عقيمًا.

إذن فهذا الأمر لا يحكمه إلا إرادة الله سبحانه وتعالى، فالآية للناس في أن يعلموا طلاقة قدرته - تعالى- في الخلق، وأنها غير خاضعة للأسباب وليست عملية حتمية، بل إرادة الخالق - سبحانه وتعالى- يريد أو لا يريد[١].

أما وجه الرحمة في خلق عيسى عليه السلام على هذه الصورة في قوله - تعالى-: ﴿ **وَرَحْمَةً مِّنَّا** ﴾ تتمثل في «أنه - سبحانه- يرحم الناس من أن يَشُكُّوا في أن قدرة الله منوطة بالأسباب ومتوقفة عليها، ولو كان هذا الشك مجرد خاطر، فإنه لا يجوز، ولا يصح بالنسبة للخالق- سبحانه-، وكأنه- تبارك وتعالى- يرحمنا من مجرد هذه الخواطر بواقع يؤكد أن طلاقة القدرة تأتي في الخلق من شيء، ومن بعض شيء، ومن لا شيء»[٢].

كيفية حمل مريم:

لم يكن حمل مريم - عليها السلام- بعيسى كعادة النساء في الحمل بل كان بنفخة من روح الله، قال- تعالى-: ﴿ **فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا** ﴾ [الأنبياء:٩١].

وقد اختلف المفسرون في تفسيرها فقيل: معناه نفخنا الروح في عيسى فيها أي أحييناه في جوفها[٣]، وقيل: النفخ في مريم من جهة روحنا وهو جبريل عليه السلام؛ لأنه نفخ في جيب درعها فوصل النفخ إلى جوفها، فحملت بالولد بإذن الله - تعالى-.

(١) انظر: تفسير الشعراوي (١٥/٩٠٥٩).
(٢) تفسير الشعراوي (١٥/٩٠٦٠).
(٣) انظر: الكشاف (٢/١٣٣)، وتفسير ابن كثير (٥/٢٢١).

وإلى هذا ذهب غير واحد من علماء السلف كما ذكر ابن كثير[1].

وعلى أية حال فالكلام عن أمر الروح وكيفية النفخ ليس ذا جَدَاء، وإنما ما يهمنا هو أن النفخ - كما ذكر ابن عاشور- إنما أطلق هنا تمثيلًا لإلقاء روح التكوين للنسل في رحم المرأة دفعة واحدة بدون الوسائل المتعددة تشبيهًا لهيئة التكوين السريع بهيئة النفخ، والظرفية المُفَادة بــ«في» كون مريم ظرفًا لحلول الروح المنفوخ فيها؛ إذ كانت وعاءه؛ ولذلك قيل: «فيها»، ولم يقل: «فيه» للإشارة إلى أن الحمل الذي كون في رحمها حمل من غير الطريق المعتاد، كأنه قيل: فنفخنا في بطنها، وذلك أدل في مخالفة العادة؛ لأن خرق العادة تقوى دلالته بمقدار ما يضمحل فيه من الوسائل المعتادة، وأن الروح هو القوة التي بها الحياة، قال - تعالى-: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ [الحجر:٢٩] أي: جعلت في آدم روحًا فصار حيًّا[2].

ولا يمنع أن يجعل الله ﷻ هذه النفخة بواسطة جبريل عليه السلام، «فإن جبريل روح من الله - تعالى-، وليست له خواص الآدمي، بل له الخواص الروحية التي لا تتصل بالمادة»[3].

وبعد هذه النفخة حملت مريم - عليها السلام-، قال - تعالى-: ﴿**فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا** ﴾ [مريم:٢٢] ولم تبين الآية كم حملته.

واختلف المفسرون في ذلك فقيل: حملته حملًا عاديًّا كما تحمل النساء، وتكون النفخة قد بعثت الحياة والنشاط في البويضة، فإذا هي علقة فمضغة فعظام ثم تكسى العظام باللحم ويستكمل الجنين أيامه المعهودة[4].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٥/٢٢١).

(٢) انظر: التحرير والتنوير (١٧/١٣٨).

(٣) زهرة التفاسير (٩/٤٦٢٥).

(٤) في ظلال القرآن (٤/٢٣٠٦، ٢٣٠٧).

وتظاهرت الروايات بأنها ولدته لثمانية أشهر، قاله عكرمة، وقيل: ولدته لتسعة، وقيل: لستة.

أما ابن عباس فقال: ما هو إلا أن حملت فوضعت في الحال(١).

ورجح القرطبي قول ابن عباس هذا واستظهره فقال: «وما ذكرناه عن ابن عباس أصح وأظهر، والله أعلم»(٢).

وعلل ذلك: بأن الله- تعالى- ذكر الانتباذ عقب الحمل(٣).

قال الشيخ أبو زهرة معقبًا على قول القرطبي: «ولعله يؤيد ذلك النظر: العطف بالفاء في الحمل ثم في مجيء المخاض، ولا مانع عندنا من قبول ذلك، ولكن لا دليل عليه، وإن صح يكون أمرًا خارقًا آخر، ولم يذكر ما يدل عليه من القرآن والسنة المرفوعة إلى رسول الله ﷺ»(٤).

المبحث الثاني: القدرة الإلهية والأسباب في شراب مريم - عليها السلام- بعد الولادة

كان رزق الله - تعالى- لمريم - عليها السلام- عندما جاءها الطلق وأوجاع الولادة آية على قدرته المطلقة التي لا تتقيد بالأسباب، فقد كانت وحيدة ضعيفة تعاني آلام المخاض، ولا يوجد من يرعاها ويأتي لها بطعام وشراب.

وقد ألجأها الطلق إلى جذع النخلة واضطرها اضطرارًا أن تعتمد وتتعلق به لشدة وجع الطلق، قال- تعالى-: ﴿ **فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا** ﴾ [مريم:٢٣].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١١/٩٢، ٩٣).
(٢) المصدر السابق (١١/٩٣).
(٣) المصدر السابق (١١/٩٢).
(٤) زهرة التفاسير (٩/٤٦٢٦).

وقد كانت «وحيدة فريدة، تعاني حيرة العذراء في أول مخاض، ولا علم لها بشيء، ولا معين لها في شيء... وهي تتمنى لو كانت نسيًّا»[١] أي: تمنت لو كانت شيئًا لا يؤبه له، من شأنه وحقه أن ينسى في العادة، وقد نسي وطرح؛ وذلك لما لحقها من فرط الحياء من الناس على حكم العادة البشرية، لا كراهة لحكم الله، أو لشدة التكليف عليها إذا بهتوها، وهي عارفة ببراءة ساحتها[٢].

وهي في هذه الحالة جاءها النداء من تحتها يخبرها بطعامها وشرابها، قال - تعالى-: ﴿ فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ﴾ [مريم:٢٤].

اختلاف المفسرين في المُنادي:

وقد اختلف المفسرون في هذا المنادي الذي نادى مريم - عليها السلام-، فقال بعضهم: هو عيسى عليه السلام، وممن قال ذلك: أُبيُّ بن كعب، ومجاهد، والحسن، ووهب ابن مُنَبِّه، وسعيد بن جبير في إحدى الروايتين عنه، وابن زيد[٣]، ورجح ذلك الطبري وقال: «وأَوْلى القولين في ذلك عندنا قول من قال: الذي نادها ابنها عيسى»[٤]، وكذلك استظهره أبو حيان في البحر المحيط[٥]، ورجحه الفخر الرازي[٦]، وصاحب الظلال[٧]، وابن عاشور[٨]، والشنقيطي[٩]، والشعراوي[١٠].

---

(١) في ظلال القرآن (٢٣٠٧/٤).
(٢) الكشاف (١٢/٣).
(٣) انظر: جامع البيان (٥٠٣/١٥، ٥٠٤).
(٤) انظر: جامع البيان (٥٠٤/١٥).
(٥) انظر: المحيط (٢٥٣/٧).
(٦) انظر: مفاتيح الغيب للرازي (٥٢٧/٢١).
(٧) انظر: في ظلال القرآن (٢٣٠٦/٤).
(٨) انظر: التحرير والتنوير (٨٦/١٦).
(٩) انظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٣٩٤/٣).
(١٠) انظر: تفسير الشعراوي (٩٠٧٢/١٥).

وقال البعض الآخر: إن المنادي هو جبريل عليه السلام.

وممن قال بذلك: ابن عباس، وعلقمة، والضحاك، وقتادة، والسُّدِّي، وسعيد بن جبير في الرواية الأخرى عنه[(١)].

ورجح هذا القول واستظهره: القرطبي[(٢)].

أدلة من قال: إن المنادي جبريل عليه السلام:

واستدل من قال: إنه جبريل بالآتي:

١- قرار الكسر في «مِنْ» في قوله- تعالى-: ﴿ **فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ** ﴾ بكسر الميم والتاء بأن المراد: فناداها الذي هو تحتها وهو جبريل[(٣)] – أي: ناداها من تحت الربوة التي آواها الله إليها هي وابنها ﴿ **وَءَاوَيۡنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبۡوَةٖ ذَاتِ قَرَارٖ وَمَعِينٖ** ﴾ [المؤمنون: ٥٠].

٢- أن عيسى لم يتكلم حتى أتت به قومها[(٤)].

٣- قراءة ابن عباس: «فناداها ملك مِنْ تحتها، قالوا: بأن جبريل كان على بقعة من الأرض أخفض من البقعة التي كانت هي عليها»[(٥)].

أدلة من قال: إن المنادي عيسى:

واستدل من قال: إن المنادي عيسى عليه السلام بالآتي:

١- أن قوله فناداها فعلٌ، ولا بد أن يكون فاعله قد تقدم ذكره ولقد تقدم قبل هذه الآية ذكر جبريل وذكر عيسى عليهما إلا أن ذكر عيسى أقرب لقوله – تعالى-:

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (١١/٩٣).

(٢) المصدر السابق (١١/٩٤).

(٣) انظر: مفاتيح الغيب (٢١/٥٢٧)، وأضواء البيان (٣/٣٩٤).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (١١/٩٣).

(٥) السابق (١١/٩٤).

﴿ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ ﴾ [مريم:٢٢] والضمير ههنا عائد إلى المسيح فكان حمله عليه أَوْلى(١).

٢- استدلوا بقراءة: ﴿ **فناداها مَنْ تحتها** ﴾ بفتح الميم؛ لأن قوله: فناداها من تحتها بفتح الميم إنما يستعمل إذا كان قد عُلِم قبل ذلك أن تحتها أحدًا، والذي علم كونه حاصلًا تحتها هو عيسى عليه السلام فوجب حمل اللفظ عليه، وأما القراءة بكسر الميم فهي تقتضي ذلك أيضًا(٢).

٣- أن قوله- تعالى-: ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ﴾ [مريم:٢٩] فيه دلالة على أنها قد علمت أنه ناطق في حاله تلك، ولو لم يكن كلمها لما علمت أنه ينطق فما كانت تشير إلى عيسى عليه السلام بالكلام(٣).

٤- أن الموضع الذي ناداها منه ﴿ مِن تَحْتِهَآ ﴾ موضع اللَّوْث والنظر إلى العورة، وذلك لا يليق بالملائكة.

٥- أنه - سبحانه وتعالى- أنطقه لها حين وضعته تطييبًا لقلبها، وإزالة للوحشة عنها؛ حتى تشاهد في أول الأمر ما بشرها به جبريل عليه السلام من علو شأن ذلك الوليد(٤).

الرأي الراجح:

ما ذهب إليه الطبري ومن وافقه من أن المنادي هو عيسى عليه السلام هو الأصح؛ وذلك لما استدلوا به.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى: أن الأنسب لحالها - وهي العذراء الطاهرة النقية-

(١) مفاتيح الغيب (٥٥٧/٢١)، وانظر: جامع البيان (٥٠٥/١٥)، وأضواء البيان (٣٩٤/٣).
(٢) انظر مفاتيح الغيب (٥٢٧/٢١).
(٣) انظر: مفاتيح الغيب (٥٢٧/٢١)، وجامع البيان (٥٠٥/١٥)، وأضواء البيان (٣٩٤/٣).
(٤) انظر: مفاتيح الغيب (٥٢٧/٢١).

أن يُنطق الله – سبحانه وتعالى- عيسى عليه السلام حين ولادته فيكون ذلك أمرًا خارقًا للعادة يُسَرِّي عنها، ويُذهب ما بها من حزن مما أَهَمَّها مما ستلاقيه من اتهامات القوم.

فنداء الوليد لها جعلها تطمئن وتعلم «أنها أمام معجزة عظمى، ووثقت تمام الثقة أنها حين تُشير إليه سيتكلم هو ويردُّ عنها الحرج مع قومها؛ لأن الكلام ممن يقدر على الكلام لا يأتي بحجة تقنع الناس على خلاف العادة، أما حين يتكلم وهو في المهد، فهذا يعني أنه معجزة خارقة للعادة، فإذا كان الوليد معجزة فالمعجزة في أمه من باب أَوْلى»(١).

وهذا الرأي يتناسب مع خرق نظام الأسباب والمسببات الذي جاء في أمور عدة في قصة مريم وعيسى- عليهما السلام- على عكس ما إذا كان المنادي جبريل فلن يتحقق هذا الغرض.

جريان النهر لمريم – عليها السلام–:

تجلت قدرة الله سبحانه وتعالى في جعل السَّرِيّ شرابًا لمريم – عليها السلام–، قال – تعالى–: ﴿ **قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا** ﴾ [مريم:٢٤].

وقد اختلف المفسرون في المراد بالسري في هذه الآية، فقال بعضهم: هو الجدول، وهو النهر الصغير أي: أشار لها إلى الجدول الذي كان قريبًا من جذع النخلة. قال ابن عباس: كان ذلك نهرًا قد انقطع ماؤه فأجراه الله – تعالى– لمريم، والنهر يسمى سريًّا؛ لأن الماء يسري فيه(٢).

وقال البعض الآخر: السري هو عيسى، والسري من الرجال: عظيم الخصال،

(١) تفسير الشعراوي (٩٠٧٢/١٥).

(٢) انظر: جامع البيان (٥٠٥/١٥)، والجامع لأحكام القرآن (٩٤/١١)، والكشاف (١٢/٣)، وتفسير البغوي: أبو محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي (ت: ٥١٠هـ)، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، الطبعة الأولى (١٤٢٠هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت (٢٢٩/٣)، والدر المنثور: عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي (ت:٩١١هـ)، دار الفكر، بيروت، (٤٩٦/٥).

السيد. قال الحسن: كان والله سَرِيًّا من الرجال[1].

الرأي الراجح:

القول الأظهر أن المراد بالسَّري في الآية: النهر، والدليل على ذلك ما يأتي:

١- القرينة من القرآن، فقوله - تعالى-: ﴿ **فَكُلِى وَٱشْرَبِى** ﴾ [مريم:٢٦] قرينة على أن ذلك الأكل والشرب هو ما تقدم الامتنان به في قوله- تعالى-: ﴿ **قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا** ﴾ [مريم:٢٤] وقوله - تعالى-: ﴿ **تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا** ﴾ [مريم:٢٥].

وكذلك قوله - تعالى-: ﴿ **وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ** ﴾ [المؤمنون:٥٠]؛ لأن المعين الماء الجاري، والظاهر: أنه الجدول المعبر عنه بالسري في هذه الآية الكريمة[2].

٢- وحديث النبي ﷺ المرفوع أنه قال: «**إن السَّري الذي قال الله لمريم: ﴿ قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾** [مريم:٢٤] **نهر أخرجه الله لتشرب منه**»[3].

وعلى الرغم من أن هذا الحديث قد روي بأسانيد ضعيفة فإنها يقوي بعضها بعضًا، ويرتفع الحديث إلى الحسن لغيره.

قال الشنقيطي معقبًا على هذا الحديث: «فهذا الحديث المرفوع إلى النبي ﷺ وإن كانت طرقه لا يخلو شيء منها من ضعف فهو أقرب إلى الصواب من دعوى أن

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (٩٤/١١)، وجامع البيان (٥٠٥/١٥)، وتفسير البغوي (٢٣٠/٣)، والكشاف (١٢/٣).

(٢) انظر: أضواء البيان (٣٩٦/٣).

(٣) حسن لغيره: أخرجه البخاري في صحيحه (١٦٥/٤) تعليقًا، والحاكم في «المستدرك» (٤٠٥/٢) برقم (٣٤١٣) موقوفًا، وقال: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه»، وأخرجه الطبراني في معجمه الصغير (٩/٢) برقم (٦٨٥)، وفي «الكبير» (٣٤٦/١٢) برقم (١٣٣٠٣)، وابن عدي في الكامل (١٣٧/٨) برقم (١٨٨٥) مرفوعًا بأسانيد ضعيفة.

السَّري عيسى بغير دليل يجب الرجوع إليه»[١].

واختار هذا الرأي: ابن جرير في تفسيره حيث قال: «وأولى القولين في ذلك عندي بالصواب: قول من قال: عُنِي به الجدول»[٢].

واستدل على ذلك بآثار عن البراء بن عازب، وابن عباس، وعمرو بن ميمون الأودي، ومجاهد، والحسن البصري، وسعيد بن جبير، وإبراهيم النخعي، وقتادة، والسُّدي وغيرهم[٣].

واستظهر هذا القول ابن كثير في تفسيره[٤].

٣- كذلك فإن تفسير السَّري بالنهر يتناسب مع خرق نظام الأسباب والمسببات الذي ظهر في غير موضع في قصة مريم وابنها عيسى- عليهما السلام- بداية من حملها به، ونهاية بكلامه وهو في المهد.

فهذا النهر قيل: إنه كان يابسًا فأجرى الله- تعالى- فيه الماء وكان هذا خرقًا للعادة.

قال ابن عباس: «كان ذلك نهرًا قد انقطع ماؤه فأجراه الله- تعالى- لمريم»[٥].

المبحث الثالث: القدرة الإلهية والأسباب في طعام مريم -عليها السلام- بعد الولادة

فكما هيأ الله - سبحانه وتعالى- الشراب لمريم - عليها السلام- هيأ لها أيضًا الطعام، فقال - تعالى-: ﴿ **وَهُزِّىٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا** ﴾ [مريم:٢٥].

---

(١) أضواء البيان (٢/٣٩٦).
(٢) جامع البيان (١٥/٥١٠).
(٣) انظر: المصدر السابق (١٥/٥٠٦-٥٠٩).
(٤) تفسير ابن كثير (٥/٢٢٥).
(٥) الجامع لأحكام القرآن (١١/٩٤).

«وكأن الحق - تبارك وتعالى- يريد أن يُظهر لمريم آية أخرى من آياته، فأمرها أن تهز جذع النخلة الذي لا يستطيع هزه الرجل القوي، فكيف تهزه وهي الضعيفة التي تعاني ألم الولادة ومشاقها؟

كما أن الحق - سبحانه- قادر على أن ينزل طعامها دون جَهْد منها ودون هزها، إنما أراد - سبحانه- أن يجمع لها بين شيئين: طلب الأسباب والاعتماد على المُسَبِّب.

والأخذ بالأسباب في هز النخلة، رغم أنها متعبة قد أرهقها الحمل والولادة، وجاء بها إلى جذع النخلة لتستند إليها وتتشبث به في وضعها ليعلم أن الإنسان في سعيه مطالب بالأخذ بالأسباب مهما كان ضعيفًا.

لذلك أبقى لمريم اتخاذ الأسباب مع ضعفها وعدم قدرتها، ثم تعتمد على المسبِّب - سبحانه- الذي أنزل لها الرطب مستويًا ناضجًا»[1].

وقد ذكر الإمام الشنقيطي أن بعض العلماء قد أخذ من قوله - تعالى-: ﴿ **وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ** ﴾ الآية، أن السعي والتسبب في تحصيل الرزق أمر مأمور به شرعًا، وأنه لا ينافي التوكل على الله - جل وعلا-، وهذا أمر كالمعلوم من الدين بالضرورة: أن الأخذ بالأسباب في تحصيل المنافع، ودفع المضار في الدنيا أمر مأمور به شرعًا لا ينافي التوكل على الله بحال من الأحوال؛ لأن المكلف يأخذ بالسبب امتثالًا لأمر ربه مع علمه ويقينه أنه لا يقع إلا ما يشاء الله وقوعه، فهو متوكل على الله، عالم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له من خير أو شر، ولو شاء الله لتخَلَّفَتْ الأسباب عن مسبباتها[2].

وقد اختلف العلماء في جذع النخلة هذه.

فقال بعضهم: إن جذع النخلة الذي أمرها أن تهزه كان جذعًا يابسًا، فلما هزته

---

(١) تفسير الشعراوي (١٥/٩٠٦٧، ٩٠٦٨).

(٢) انظر: أضواء البيان (٣/٣٩٨، ٣٩٩).

جعله الله نخلة ذات رطب جني.

وقال بعضهم: كان الجذع جذع نخلة ثابتة إلا أنها غير مثمرة، فلما هزته أنبت الله فيه الثمر، وجعله رطبًا جنيًّا.

وقال البعض الآخر: كانت النخلة مثمرة، وقد أمرها الله بهزها ليتساقط لها الرطب الذي كان موجودًا[(١)].

ولكن أكثر المفسرين على أن جذع النخلة كان يابسًا وهي يابسة ولم يكن فيها ثمر فأثمرت فكان ذلك خارقًا للعادة[(٢)].

قال الزمخشري: «وكان جذع نخلة يابسة في الصحراء ليس لها رأس ولا ثمرة ولا خضرة، وكان الوقت شتاءً»[(٣)].

«والذي يفهم من سياق القرآن: أن الله - سبحانه وتعالى- هيأ لها ذلك الرطب على سبيل خرق العادة، سواء قلنا: إن الجذع كان يابسًا أو نخلة مثمرة، إلا أن الله أنبت فيه الثمر وجعله رطبًا جنيًّا[(٤)]، ووجه دلالة السياق على ذلك أن قوله - تعالى-: ﴿ **فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ۖ** ﴾ [مريم:٢٦] يدل على أن عينها إنما تَقرُّ في ذلك الوقت بالأمور الخارقة للعادة؛ لأنها هي التي تُبين براءتها مما اتهموها به، فوجود هذه الخوارق تطمئن إليها نفسها وتزول به عنها الريبة، وبذلك يكون قرة عين لها[(٥)].

وذكر المراغي أن في هذا إشارة وتنبيهًا إلى أن من يقدر أن يُثمر النخلة اليابسة في

---

(١) انظر: المصدر السابق (٣/٣٩٧).

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن (١١/٩٢)، وتفسير ابن كثير (٥/٢٢)، والتحرير والتنوير (١٦/٨٦)، وزهرة التفاسير (١/٤٦٣٠).

(٣) الكشاف (٣/١١).

(٤) **جنيًّا**: أي: مجتنى، وهو كناية عن حدثان سقوطه. أي: عن طراوته ولم يكن من الرطب المخبوء من قبل؛ لأن الرطب متى كان أقرب عهدًا بنخلته كان أطيب طعمًا. التحرير والتنوير (١٦/٨٨).

(٥) انظر: أضواء البيان (٣/٣٩٧).

الشتاء يقدر أن يجعلها تحمل من غير السنن العادية[1].

وكذلك قال القشيري[2].

ولم تقع التسرية بهاتين المعجزتين من حيث إنها طعام وشراب، ولكن من حيث إنهما معجزتان تريان الناس أنها من أهل العصمة والبعد عن الريبة، وأن مثلها مما اتهموها به بمعزل، وأن لها أمورًا إلهية خارجة عن العادات خارقة لما ألفوا واعتادوا، حتى يتبين لهم أن ولادها من غير زوج ليس ببدع من شأنها[3].

المبحث الرابع: القدرة الإلهية والأسباب في كلام عيسى عليه السلام في المهد

تتجلى في كلام عيسى عليه السلام في المهد قدرة الله - سبحانه وتعالى- وخرقه لقانون الأسباب والمسببات، القانون الذي يعتقد فلاسفتهم أنه لا يقبل التخلف، فكلامه- عليه السلام- كان فوق ما اعتاده الناس، فلم يُعهد لصبي في المهد أن يتكلم.

وكانت بداية هذه المعجزة عندما أمر الله سبحانه وتعالى مريم أن تصوم ذلك اليوم الذي أتت فيه قومها تحمل عيسى عليه السلام بألا تكلم أحدًا من البشر فإن الله سيكفيها أمرها، ويقوم بحجتها ويبرئ ساحتها مما اتهموها به.

قال - تعالى-: ﴿ **فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا** ﴾ [مريم:٢٦].

فسلمت لأمر الله وسلمت لقضائه، وأخذت ولدها عيسى عليه السلام ﴿ **فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ** ﴾ [مريم:٢٧] فلما رأوها كذلك، أعظموا أمرها واستنكروه جدًّا، وقالوا:

(١) انظر تفسير المراغي: أحمد بن مصطفى المراغي (ت: ١٣٧١هـ)، الطبعة الأولى (١٣٦٥هـ- ١٩٤٦م)، شركة مكتبة ومطبعة البابي الحلبي وأولاده، مصر، (١٦/٤٥).

(٢) لطائف الإشارات: تفسير القشيري: عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (ت: ٤٦٥هـ)، تحقيق: إبراهيم البسيوني، الطبعة الثالثة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، (٢/٤٢٥).

(٣) انظر: الكشاف (٣/١٣).

﴿يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴾ [مريم:٢٧]. أي: أمرًا عظيمًا[(١)]، يعنون به: الفاحشة التي هي منها براء.

وعللوا استنكارهم بقولهم: ﴿ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾ [مريم:٢٨].

عندئذٍ أشارت إليه إشارة دلت على أنها تحيلهم عليه ليسألوه عن قصتها، وقد فهموا ذلك من إشارتها.

فإشارتها إليهم «ليستمعوا إلى ما عدوه مادة الاتهام؛ ليعرفوا أنه كان الحمل به أمرًا من الله، فأثار ذلك عجبهم، وقالوا مستبعدين مستنكرين إشارتها»[(٢)]: ﴿ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ [مريم:٢٩].

والاستنكار كان لكونه ﴿ فِى ٱلْمَهْدِ ﴾ فهذا عجب.

وسواء أكان المراد بالمهد الحِجْر أم السرير أم غيرهما فلا تضاد بين هذه المعاني؛ لأن المراد: أنه كان طفلًا رضيعًا يمهد له المكان الذي ينام فيه، وكلامه وهو على هذا الحال دليل براءتها وخروج لها من محنتها، فهو أمر خارق للعادة والنواميس البشرية.

قال ابن كثير: «فجعل الله لها من ذلك فرجًا ومخرجًا، وأنطق الصبي في المهد بأنه عبد الله ورسوله، وكان آية عظيمة ومعجزة باهرة، صلوات الله وسلامه عليه»[(٣)].

وقد كان رد عيسى عليه السلام عليهم بما يؤكد بشريته، وأنه عبد لله - تعالى-، قال - تعالى- مخبرًا بما قاله عيسى عليه السلام لهم: ﴿ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا * وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِى

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٥/٢٢٦)، وأضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن (٥/٥٣٥).
(٢) التحرير والتنوير (١٦/٩٧).
(٣) تفسير ابن كثير (٤/٤١٥).

وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا * وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ﴾ [مريم: ٣٠-٣٣].

وبهذا الكلام يعلن عيسى عليه السلام عبوديته لله مؤكدًا ذلك بحرف التوكيد «إن».

فليس هو ابنه كما ستدعي فرقة، وليس هو إله كما ستدعي فرقة أخرى، وليس هو ثالث ثلاثة كما ستدعي فرقة ثالثة «ويعلن أن الله جعله نبيًّا، لا ولدًا ولا شريكًا، وبارك فيه، وأوصاه بالصلاة والزكاة مدة حياته، والبر بوالدته والتواضع مع عشيرته، فله إذن حياة محدودة ذات أمد، وهو يموت ويبعث، وقد قدر الله - تعالى- له السلام والأمان والطمأنينة يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيًّا»[1].

عَرَّف الله سبحانه وتعالى بعيسى ابن مريم بما يؤكد على بشريته قائلًا: ﴿ **ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ** ﴾ [مريم: ٣٤] فقد كان شخص عيسى عليه السلام موضع خلافات طوائف مسيحية؛ ولذا قال- تعالى-: ﴿ **ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ** ﴾ فالامتراء: الشك المقترن بمجادلات بل مهاترات أحيانًا.

فمنذ انعقد مجمع نيقية سنة ٣٢٥ ميلادية والمناقشات جارية حول شخص المسيح عليه السلام، فمن ادعاء نبوته لله- تعالى- إلى ادعاء ألوهيته، والخلافات تجري، وقد ضموا إلى ألوهيته ألوهية روح القدس، ثم اختلفوا أهو نشأ من الله أم من المسيح أم منهما، ثم كان الخلاف في المشيئة أهي من الناسوت واللاهوت أم منهما إلى آخر ما اختلفوا.

وقد بين الله - تعالى- الحق في عيسى ابن مريم وهو أنه بشر ونسبته إلى أمه مريم تؤكد ذلك فهو قد خُلِق من غير أب ليكون في خلقه آية تبين أن الله سبحانه وتعالى فَعَّال مختار لا يلزمه نظام الأسباب العادية ومسبباتها[2].

---

(١) في ظلال القرآن (٢٣٠٨/٤).

(٢) انظر: زهرة التفاسير (٤٦٣٧/٩، ٤٦٣٨).

فهو «لم ينشأ عن الله نشوء العلة من المعلول، كما ينشأ المسبب عن السبب، بل خلقه وأبدعه مختارًا مريدًا، أنشأه من حيث لم يكن»[١].

ولذلك نفى الله ﷻ أن يكون له ولد فقال: ﴿ **مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَـٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ** ﴾ [مريم:٣٥] فهي القدرة المطلقة التي تستغني عن الأسباب؛ لأن إرادته ﷻ فوق كل الأسباب والمسببات.

* * *

(١) المصدر السابق (٤٦٣٧/٩).

الخاتمة

توصل البحث إلى النتائج الآتية:

١- أن حكمة الله ﷻ اقتضت ربط الأسباب بمسبباتها والنتائج بمقدماتها، وأن العلاقة السببية لا تقتصر على السنن والظواهر الكونية فحسب، بل تشمل العلاقات الإنسانية والاجتماعية، فهي أيضًا ترتبط بعلاقات سببية، وكذلك الأحكام الشرعية.

فالقرآن الكريم صريح في ترتيب أحكام الدنيا والآخرة ومصالحهما ومفاسدهما على الأسباب والأعمال.

٢- أن تأثير السبب في المسبَّب ليس حتميًّا؛ إذ إن القدرة الإلهية هي المنوطة بتأثير السبب في المسبَّب وحدوثه أو عدم حدوثه.

٣- أن الأسباب مهما تكن قوية محكمة فهي غير حتمية؛ لأن النتائج بيده – سبحانه وتعالى- وكل الكون تحت سلطانه ﷻ.

٤- القانون الحتمي الوحيد قوله- تعالى-: ﴿ **لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا** ﴾ [الطلاق:١] فهو الذي يتحدث عن طلاقة القدرة الإلهية من وراء السنن والقوانين الكونية التي يدبر الله بها هذا الكون بقدره النافذ الطليق.

٥- بيَّن البحث أن الأخذ بالأسباب في تحصيل المنافع ودفع المضار في الدنيا أمر مأمور به شرعًا ولا ينافي التوكل.

٦- أن التوكل على الله ليس بمانع من اتخاذ الأسباب؛ إذ لا توكل إلا بعد الأخذ بها.

٧- أن التوكل على الله – تعالى- مع الأخذ بالأسباب فيه معنى الشعور بالنقص والعجز الإنساني، وفيه ضراعة وإحساس بالكمال المطلق لله – تعالى- وقدرته

الشاملة على كل ما خلق.

٨- أن المؤمن إذا توكل على الله بعد الأخذ بالأسباب فإنه يتحرر من العبودية للأسباب، وتعلق قلبه بها.

٩- أن الأخذ بالأسباب فيه امتثال لأمر الله ﷻ وطاعته، وأن من رفض الأخذ بها فقد ضاد الله في أمره.

١٠- أن الأخذ بالأسباب فيه نصرة لأهل الحق، فلو أن أهل الحق اتخذوا كل أسباب القوة، وقد جانبوا الهوى والشهوات لكانوا غالبين لا محالة، وما يغلب أهل الباطل إلا لعدم اتخاذ أهل الإيمان الأسباب.

١١- بيَّن البحث أن سورة مريم جاءت في كثير من آياتها لتبين وتثبت طلاقة القدرة الإلهية من خلال قصة زكريا ويحيى وقصة مريم وعيسى - عليهم السلام-.

١٢- جاءت هذه السورة لتبين وتثبت أيضًا أن الذين يقيدون مشيئة الله بما يعرفونه هُم من نواميسه لا يعرفون حقيقة الألوهية.

١٣- أن الناموس الوحيد الذي تندرج تحته كل النواميس هو طلاقة القدرة الإلهية وعلمه - سبحانه وتعالى- المطلق الذي يقتضي أن تتحقق الفوائد بالأسباب والمسببات أو بغيرها، فالله ﷻ إذا أراد أمرًا كان مفعولًا.

* * *

فهرس المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

١- **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن:** محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي (ت: ١٣٩٣هـ)، طبعة (١٤١٥هـ-١٩٩٥م)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان.

٢- البحر المحيط في التفسير: أبو حيان محمد بن يوسف بن حيان الأندلسي (ت: ٧٤٥هـ)، تحقيق: صدقي محمد جميل، طبعة (١٤٢٠هـ)، دار الفكر، بيروت.

٣- التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن محمد بن عاشور التونسي (ت: ١٣٩٣هـ)، طبعة (١٩٨٤م)، الدار التنوسية للنشر، تونس.

٤- تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي: أبو العلا محمد بن عبد الرحمن ابن عبد الرحيم المباركفوري (ت: ١٣٥٣هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت.

٥- تفسير الشعراوي – الخواطر: محمد متولي الشعراوي (ت: ١٤١٨هـ)، مطابع أخبار اليوم.

٦- تفسير القرآن العظيم: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير (ت: ٧٧٤هـ)، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، الطبعة الثانية (١٤٢٠هـ-١٩٩٩م)، دار طيبة للنشر والتوزيع.

٧- تفسير المراغي، أحمد بن مصطفى المراغي (ت: ١٣٧١هـ)، الطبعة الأولى (١٣٦٥هـ-١٩٤٦م)، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر.

٨- جامع البيان عن تأويل آي القرآن: محمد بن جرير بن يزيد الآملي، أبو جعفر الطبري (ت: ٣١٠هـ)، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، الطبعة الأولى (١٤٢٢هـ-٢٠٠١م)، دار هجر للطباعة والنشر

والتوزيع والإعلان.
٩- الجامع الكبير = سنن الترمذي: محمد بن عيسى بن سورة الترمذي أبو عيسى (ت: ٢٧٩هـ)، تحقيق: بشار عواد معروف، طبعة (١٩٩٨م)، دار الغرب الإسلامي – بيروت.
١٠- الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي: أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري شمس الدين القرطبي (ت: ٦٧١هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الطبعة الثانية (١٣٨٤هـ-١٩٦٤م)، دار الكتب المصرية، القاهرة.
١١- الدر المنثور: عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـ)، دار الفكر، بيروت.
١٢- زهرة التفاسير: محمد بن أحمد المعروف بأبي زهرة (ت: ١٣٩٤هـ)، دارالفكر العربي، القاهرة – مصر.
١٣- صحيح البخاري: محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الطبعة الأولى (١٤٢٢هـ)، دار طوق النجاة.
١٤- صحيح مسلم: مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (ت: ٢٦١هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي- بيروت.
١٥- الفتاوى الكبرى لابن تيمية: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن محمد بن تيمية الحنبلي (ت: ٧٢٨هـ)، الطبعة الأولى (١٤٠٨هـ-١٩٨٧م)، دار الكتب العلمية.
١٦- في ظلال القرآن: سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (ت: ١٣٨٥هـ)، الطبعة السابعة عشر (١٤١٢هـ)، دار الشروق، بيروت، القاهرة.
١٧- الكامل في ضعفاء الرجال: أبو أحمد بن عدي الجرجاني (ت: ٣٦٥هـ)،

تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد عوض، الطبعة الأولى (١٤١٨هـ-١٩٩٧م)، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.

١٨- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: أبو القاسم محمود بن عمرو الزمخشري (ت: ٥٣٨هـ)، الطبعة الثالثة (١٤٠٧هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت.

١٩- لطائف الإشارات = تفسير القشيري: عبد الكريم بن هوازن عبد الملك القشيري (ت: ٤٦٥هـ)، تحقيق: إبراهيم البسيوني، الطبعة الثالثة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر.

٢٠- مدارج السالكين: محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (ت: ٧٥١هـ)، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي، الطبعة الثالثة (١٤١٦هـ-١٩٩٦م)، دار الكتاب العربي – بيروت.

٢١- المستدرك على الصحيحين: أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله النيسابوري (ت: ٤٠٥هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، الطبعة الأولى (١٤١١هـ-١٩٩٠م)، دار الكتب العلمية، بيروت.

٢٢- معالم التنزيل في تفسير القرآن = تفسير البغوي: أبو محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي (ت: ٥١٠هـ)، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، الطبعة الأولى (١٤٢٠هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٢٣- المعجم الصغير: سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني (ت: ٣٦٠هـ)، تحقيق: محمد شكور محمود، الطبعة الأولى (١٤٠٥هـ-١٩٨٥م)، المكتب الإسلامي، دار عمار – بيروت، عمان.

٢٤- المعجم الكبير: سليمان بن أحمد بن أيوب، أبو القاسم الطبراني (ت: ٣٦٠هـ)، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، الطبعة الثانية، مكتبة ابن تيمية، القاهرة.

٢٥- مفاتيح الغيب: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن الملقب بفخر الدين الرازي (ت: ٦٠٦هـ)، الطبعة الثالثة (١٤٢٠هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

* * *